قصص

بقلم: روحي عبدات
rawhiabdat@yahoo.com

صرخات نور

منذ أن تسللت الحياة إلى أنفاسه، وانهمرت الدموع من عينيه عند صرخة الميلاد، لم يكن وجه أمه هو أول ما استفاقت عليه تلك العينين البريئتين، بل كانت العتمة هي أول ما اصطدمت بهما،ليكون من قضاء الله وقدره أن يبتلى علي بحبيبتيه فيصبر على نعمة حرم منها، ويمضي طفولته بين أقرانه موظفاً حواسه الأخرى في استكشاف العالم الخارجي والتعرف عليه، حيث عوضه الله عنهما بفطنة وذكاء حاد كان محط أنظار المحيطين به.

لطالما تعثرت القدمان وارتطم الجسد اللين بصلابة الأرض، إلا أن اليدين الصغيرتين ما تلبث أن تستجمع قواها لينهض الجسد من جديد وتواصل الخطوات الصغيرة دربها الطويل، فكانت العثرات تزيده قوة وصلابة، وتمنحه العزم على مواجهة الواقع الذي يعيشه والتكيف معه.

لم تكن تلك الطفولة مختلفة عن سواها، فكان لها احتياجاتها المشابهة في كل مرحلة من مراحل تطورها النمائي بجوانبها الإجتماعية والعقلية كافة، بل كان لهذا الطفل السبق في القدرة على الحفظ والإستظهار للسور القرآنية منذ الصغر، ويرافق تلك الموهبة صوت رقيق عذب ينساب من حنجرة علي لتخشع الآذان المصغية إليه، وتلين القلوب لأعظم كلمات حين تخرج من فم طفل صغير دخل النور قلبه وعقله قبل أن يدخل عينيه.

وهكذا ظل علي في مدرسته محط إعجاب أساتذته، يفتتح الإذاعة المدرسية كل صباح، ويكاد لا يخلو احتفال في المدرسة دون أن يكلل افتتاحه بآيات عطره يتلوها على مسامع الحضور، ولم يقتصر تفوقه على زملائه في هذا المجال فحسب، بل كان كذلك في المواد الدراسية، ناهيك عن لباقته في التعامل مع زملائه،ومساعدته لهم في حل بعض المسائل الرياضية التي قد تصعب عليهم، على الرغم من استخدامه لغة برايل كمعين على الدراسة، وذلك ما جعله ملتفاً بجمع من الأصحاب الذين علقت محبته في قلوبهم.

كان طموحه لا يتوقف عند المرحلة الثانوية، بل امتدت نظرته الثاقبة إلى ما بعد المدرسة، ليتحقق حلمه في الدراسة الجامعية وفي التخصص الذي أحب، وبذلك انتقل إلى مجتمع آخر وبيئة جديدة تطلبت منه وقتاً للتكيف معها، فليس سهلاً على كفيف أن يتلقى تعليمه بين المبصرين إن لم يتحلى بروح المثابرة والجد في الدراسة، ولكنه أمر غير مستحيل على علي الذي بدأ بمضاعفة جهوده والتغلب على كل هاجس من شأنه إضعاف دافعيته.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كانت عملية التنقل بالنسبة له عائقاً تغلب عليه بمثابرته على حضور المحاضرات ترافقه عصاه البيضاء مرشده ودليله لما حوله، وكما هو الحال في المدرسة، استمر بالتفوق بالمرحلة الجامعية، وكان ذلك بفضل الدعم المعنوي الذي تلقاه من أسرته التي غمرته بدفئها، فهيأت له الظروف المناسبة، وساعدته بالإنقضاض على كل عقباته، وتشجيعه المتواصل من أمه التي طالما أحبته وغرست فيه حب الحياة منذ الصغر.

أما زملاؤه وأساتذته فكانوا أسرته الجامعية التي اعتبرته جزءاً من كيانها الذي قد يتخلخل دونه، لا رأفة على حاله كمعاق، ولكن لانتزاعه هذه المكانة بينهم لما عكسه من صورة مثالية عن الشاب الطموح، والطالب المجتهد الذي يحب جامعته وينتمي إليها.

وما كان من جراء انسجامه في نسيج الحياة الجامعية، إلى أن أفضى ذلك عن حبه لإحدى الزميلات التي رآها بقلبه المبصر فعشقها كما يعشق قلب شاعر وجه البدر في ليلة ظلماء، فرأى فيها زوجته ورفيقة طريقه الطويل، ولكنه يتساءل في نفسه متردداً: >أيحق لكفيف أن يهوى حسناء مبصرة يتمناها كل شاب لجمالها وحسن خلقها؟ أليس من الأفضل لي أن أبحث عن كفيفة مثلي ترضى بوضعي الصحي وتبادلني المشاعر، فتاة تعرف معنى الإعاقة لأنها عاشتها وارتشفت من كأسها<؟

لكن الأمر يبدو مختلفاً حين يبادله الطرف الآخر نفس المشاعر إن لم يكن أكثر، فيتبدد الظلام إلى نور، ويختار القلب المحب كفيفاً يفضله على كل زملاء الكلية، ليكون شريك حياة، هذا ما صارحته به ليلى بعد شهور طويلة من الزمالة الجامعية والتعاون الدراسي معه، ولعل هذه المشاعر قد أثارت استهجان زميلاتها، حين وصفنها بمن ترمي نفسها في حياة تعيسة، تتحول فيها إلى مجرد خادمة لشخص عاجز لا يقوى على قضاء أبسط حاجياته ــ على حد قولهن ــ فكيف له أن يمنحها الأمان الإجتماعي والعاطفي ويحقق لها الإستقلال الإقتصادي، ويكون أباً لأطفالها، يشاركها تربيتهم، ويكون لها عوناً في حياتها لا عالة عليها...؟

بهذه الكلمات اللاذعة واجهتها زميلاتها، ولعل تحت هذه الكلمات شيئاً من المنطق، فليلى فتاة جميلة من عائلة محترمة قد تقدم لخطبتها أفضل الشبان، فلماذا تصر على ذلك الكفيف وتربط مصيرها بمستقبل مجهول؟..

واكتملت دائرة المعارضة، وضاقت ليلي بالحيرة ومرارة المواجهة بين عاطفة يعتبرها الآخرون نزوة يجب التخلص منها، وبين الواقع الذي وجدت نفسها في مجابهة معه، فقد رفضت أسرتها وبشدة طلب علي الزواج منها، واستنكرت تلك الجرأة من كفيفٍ جاء يتحسس طريق البيت باحثاً عن فتاة للزواج، فكان الرد قاسياً ذكّره بعينيه التي لم تبصر النور، وبعصاه التي ربما لم تقده إلى المكان المناسب.

وعلى الرغم من مضايقات الأهل والمحيطين ونصحهم لها بالإبتعاد عنه، ظلت العلاقة تشتعل بين محبين جمعتهما روح واحدة، وألّفت بينهما رابطة وجدانية لم تطفىء أوارها تعليقات الآخرين، وتتحرر ليلى من خجل الأنثى لحظاتٍ لتقول لهم: >إن هذه المشاعر ليست شفقة على معاق، إنه ليس ضعيفاً ليستحق الشفقة،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إن كنتم ترونه معاقاً، فإنني أراه أقوى من زملائه المبصرين بروحه المتقدة الحماس، وعقله الوضّاء، وفكره الذي ينم عن إنسانيته النبيلة التي لم تعطلها حاسة عن أداء رسالتها في الحياة، أراه ملهماً لي أستمد منه القوة وزوجاً مثالياً يشاركني المستقبل<.

إلا أن كل هذه التبريرات قد عجزت عن إقناع الأسرة بزواج ليلى من علي. وبعد أن تخرجا من الجامعة تجاوز الأمر مجرد الإجحاف بحريتها في الزواج من الشاب الذي تحب، ليتعدى الأمر ذلك فترغمها الأسرة على الزواج من شاب آخر قد جاء لخطبتها، وحينها رفضت ليلى وغسلت الدموع مقلتيها حتى تورمت عيناها، وانعكس ذلك على وضعها النفسي، فساءت تغذيتها وقل نومها، حتى مرضت وهزل جسمها الذي أعياه التعب، ولزمت غرفتها لا تكلم أحداً من المحيطين.

وأمام عنادها وتبريراتها، وبعد تدخل أحد الأقارب بعد أن استمر وضعها الصحي في تراجع، وافقت الأسرة ــ على مضض ــ من زواجها من علي، ولكن مع تحميلها كامل المسؤولية ولومها على ذلك الزواج، ولم يخل الأمر من مظاهر الحزن التي سادت أجواء الفرح، والتي أهمها عدم حضور والدتها مراسم العرس.

هي أمنية حققتها ليلى بعد طول عناء، وكانت بلا شك غالية الثمن، لكنها مستعدة لتحمل نتائج قرارها وتداعياته على علاقاتها الإجتماعية، فالمحبة شيء وواقع الزواج شيء آخر.

كانت البداية صعبةً عليها حين كانت تخرج مع زوجها الكفيف خارج البيت، تقود السيارة له، وتزور معه الأقارب والأصحاب، وتتسوق معه، تصف له كل شيء وتشركه في تصور كل ما تقع عليه عيناها، وله أن يسبح في فضاءات خياله لإكمال الصورة التي تشاهدها زوجته. كان يقول لها دائماً: >إني أرى كل ما تقع عليه عيناك، فأكره ما تكرهين وأحب ما تحبين<. تلك هي الأرواح المجندة حين تجتمع في جسدين منفصلين فيكفي أن تكون في أحدهما حاسة لتزرعها في الجسد الآخر.

عاشت معه زوجاً مثالياً، أعطاها كل ما يملك، وفي كل يوم تمضيه معه يتكشف لها أن العيش مع من تحب، هو أسمى من حاسة قد عطلتها حكمة الله، لتنبت مكانها حواس أخرى لا يدرك كنهها سواها من البشر.

ويتكلل هذا الزواج المبارك بعد مضي أولى سنواته بالمولود البكر الذي طالما حلمت ليلى به، فوجدته مستلقياً بجانبها بعد أن استفاقت من آلام المخاض، وكم كانت فرحتها الكبرى حين رأت والدتها تدخل عليها، تسبقها بدموع عينيها، فتعانقها لتغسل آلاماً مضت إلى غير رجعه، وفي غمرة مشاعر الأمومة تقاطعهما نور التي بدأت تصرخ لتدوي صرختها بين أروقة المستشفى، تتوجه إليها جدتها تحتضنها... تضمها.. تقبل نوراً أشرق من عينيها، تمتزج الدموع معاً لترسم لوحة تراجيدية يكمل معالمها دخول علي للمشهد، ترتسم ابتسامته على وجهه الوضاء كعادته، لم تحجب نظارته السوداء بصيرته النافذة التي كانت سر نجاحه، يسمع تمتمات في الغرفة فيقول: هذه رائحة العمة، كم انتظرت هذا اللقاء منذ زمن.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويستدير الوجه المغسول صوبه.. تخرجُ أصواتٌ من حنجرة خجولة، تعتذر دموعها لسنة من الفراق، فتكسر صرخة نور المشهد مرة أخرى، وتتلقف الدفء من صدر أمها، وتبدأ رحلتها بلا عتمة، في كنف أبوين جمع كل منهما قوة المحبة والإيمان بالطرف الآخر، ولم يفرقهما ضعف الإعاقة <<

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عائشة رغم الموت

أمه التي وضعته هي أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة به، أوجد الله بينهما علاقة حميمة لا انفصام لها، وكأن كل منهما قد خلق للآخر، والده الذي لم يعش معهما طويلاً، قضى نحبه فجأة في حادث مؤلم، حفر جرحاً غائراً في قلب زوجته وسقاها من كأس المر مبكراً ليحولها إلى أرملة في مقتبل العمر، ويحمل هذا الحادث على كاهلها مسؤولية ثقيلة لتكمل مشوارها برفقة ولدها أحمد بعد أن كان الزوج قد تقاسم معها جزءاً من رحلة العلاج والمعاناة، امتدت سنتين، أمضياها متنقلين مع طفلهما الوحيد بين عيادات الأطباء والمستشفيات.

وبعد فجيعتها الكبرى بزوجها، ها هي الآن قد استسلمت لقدر بات محتوماً عليها، يتسلل إليها ليفتك يوماً بعد يوم بجمالها وأنوثتها، فكان نصيبها من هذا القدر إمرأة ترملت مبكراً وولد وحيد يعاني من شلل رباعي في أطرافه، معتمد كلياً عليها، لا تقدر على مجافاته، فهو طعامها الذي تأكله وشربة مائها وأنفاسها الباقية في هذه الحياة.

تميز أحمد بفطنته وذكائه وحساسيته الانفعالية ورابطته الوجدانية مع أمه التي لم يعرف سواها، فرغم أقاربه من جهة الأم والأب الذين يزورونهم من حين لآخر، إلا أنه لا يرى فيهم كلهم ما يراه في أمه وحدها، فهي الكلمة التي يتقنها أكثر من بقية الكلمات التي يحاول نطقها فيتشوه معظمها أمام حالة الشلل التي يعانيها، إلا كلمة (ماما) التي يعبّر بها عن فرحه وحزنه وحاجاته وكل انفعالاته.

لولا الصبر الذي يلقيه الله على عباده المكروبين والايمان الذي يسكن قلوبهم، لولاهما لما استطاعت عائشة الصمود في وجه هذه الظروف القاسية، فقد كانا زادها في رحلتها الكؤود، فعندما يرمي الله بصبره على أحد فليس غريباً أن يتحول الألم إلى سعادة، لا يستشعرها إلا من يعيش لحظاتها.

عندما يتكلم أحمد، هي المترجمة الوحيدة للغته القصيرة المقتضبة، والتي تشترك فيها تعبيرات وجهه ويديه، وهي الوحيدة التي يستطيع أن ينقل لها أدق أحاسيسه ومشاعره، والقادرة الوحيدة أيضاً على ترجمتها إلى لغة منطوقة يفهما الآخرون.

في ذات يوم جاءت إليها جارتها العجوز، وطرقت على مسامعها كلاماً لم يرق لها سماعه، قلّب مواجعها وأثار انفعالاتها:

ــ أنت لا زلت صغيرة وجميلة يا عائشة، ويجب أن تنتبهي لنفسك.

(يثير فيها الكلام الاستغراب، فلابد أن له مغزى ما).

ــ ماذا تقصدين؟!

نظرت الجارة نحو الصورة المعلقة على الحائط المقابل، مستعجلة الكشف عن جرح لم يلتئم بعد:

ــ الله يرحمه، كان نعم الزوج، لكنه تركك فجأة وحيدة في مواجهة هذه الحياة الصعبة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تنفست بعمق، مسترجعة ذكريات مولمة، وانطلق من ثغرها زفير بارد محبوس في الصدر، تعتصر يداها منديلاً أبيض، لا تنفك تحمله.

وتحاول الجارة تغطية الجرح بضمادة جديدة، تومىء من خلالها إلى انتهاء مرحلة صعبة، والإعلان عن بدء أخرى جميلة، لا تزال تنتظر الأرملة الصغيرة.

ــ يجب أن تنسي ما مضى يا عائشة، وتبدأين حياة جديدة، يجب أن تنزعي هذا السواد عن جسدك، ما مضى ذهب وانقضى، لا زالت أمامك الحياة طويلة لتعيشي لحظات سعيدة.

وتفكر عائشة بكلمات هذه المرأة التي تغويها بنسيان زوجها الذي أحبته، وكأنها تحثها على التخلي عن عهد قطعته على نفسها، أو قيمة أصيلة تنتمي إليها.

وتنتهي المرحلة التمهيدية بمفاجأة أعدتها العجوز لعائشة، لتعلن من خلالها عما جاءت من أجله صراحه، فتزج بعرضها السخي عليها قائلة:

ــ عندي لك زوج رائع، يبحث عن امرأة جميلة مثلك، لقد عاد من سفره بعد طول غياب في الخارج، وهو يملك الآن ثروة تمكنكما من العيش في نعيم إلى الأبد.

وتميل العجوز نحو عائشة هامسة وكأنها تفشي لها سراً أو تسدي لها معروفاً:

ــ ... ولأنني أحبك وأريد مصلحتك، كنت أول من خطر ببالي، فلا تضيعي هذه الفرصة من بين يديك.

لم تكن عائشة تتوقع هذه الكلمات التي سقطت عليها دفعة واحدة، وبسرعة.. نظرت إلى أحمد الذي تابع كل ما دار بين الامرأتين، فالتقت عيناه بعيني أمه، لا يخفي قلقاً قد انتابه، كمن ينتظر ردها السلبي على ما قالته العجوز.

ــ لا بأس عليه، بإمكانك وضعه في مؤسسة خاصة ترعاه وتعتني به، وهذا كله على نفقة الدولة، نعم.. ولماذا فتحت هذه المؤسسات؟

قالت ذلك المرأة العجوز، وهي لا تفكر في أن أحداً ثالثاً يسمع هذا الحوار، فجهلها بأحمد وبقدراته العقلية ومشاعره المرهفة، جعلها تتحدث بهذه الصراحة غير المحسوبة عواقبها.

ــ فكّري جيداً بما قلته لك ولن تندمي.. سأذهب الآن منتظرة قبولك، استودعك الله.

تقبلها وتخرج، ويبدو أن إهمالها لأحمد لم يقتصر على فترة جلوسها في البيت وحديثها مع الأم، بل امتد إلى لحظات المغادرة حين نسيت أن تودعه.

وبعد أن أغلقت عائشة الباب وراء جارتها وعادت إليه، كانت الدموع الخجولة تتسلل من عينيه، وقد لمست عتاباً منهما، فضمته بسرعة وأصابعها تغوص في شعره بلطف، تقبله تارة وتحتضنه تارة أخرى:

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ــ لا، لا... أحمد حبيبي، دعك من كلام هذه العجوز الشمطاء، لن أتخلى عنك مهما جرى، أنت حياتي، وكل ما أملك في هذه الدنيا، ولا أستطيع العيش بدونك، لا تفكر يوماً أن هناك من سيبعدني عنك.

كانت تبكي ويبكي معها، يمد يده صوب وجهها محاولاً مسح دموعها، فتقبل يده الممدودة، وتضمه إلى نحرها من جديد، ليلتقط أنفاسه من دفئها، ويطمئن إلى جوارها.

شعرت بالذنب في تلك اللحظات، فلماذا لم ترد فوراً على كلام تلك العجوز؟ أليس مجرد سكوتها يعد تفكيراً بعرضها السخي؟

شكّل هذا الموقف نقطة مفصلية في علاقتهما التي تتوطد مع الزمن، فعائشة بعد اليوم لن تصغي لأية فكرة من أحد قد تبعدها عن ابنها، ولن يشغلها عن وحيدها مجرد التفكير بالزواج، وقد اتخذت قراراً بذلك، أعلنته للمحيطين وهي مقتنعة به.

ظلت سعيدة معه وبه، تعد له الطعام الذي يشتهيه، وتستشيره قبل إعداده، يأكلان بملعقة واحدة ومن طبق واحد، تنام في غرفته لتبقى رفيقته في الليل والنهار، فلا تأكل حتى يأكل ولا تنام حتى يسبقها إلى ذلك، تنتقي له الملابس التي يحبها قبل أن تلبسه إياها، حريصة على أن يظهر بمظهر لائق ومرتب باستمرار، تغني له وهي تمسد شعره، وتتغزل بجماله إذا غسلت أو مسحت وجهه.

كان أحمد يكبر، ويكبر معه حبها له، وتزداد علاقتهما الحميمة مع الأيام.. وقد شكل حجم جسده الذي بانت معالم البلوغ عليه متغيرات جديدة تفرضها آليات التعامل معه، فهناك فرق بين أحمد الطفل الصغير الذي حملته بحضنها وتنقلت به من مكان إلى مكان، وبين أحمد الشاب المتصلب الثقيل.

فهناك أعباء جديدة تنتظرها، وهي الصاحبة الرفيقة له في تنقلاته على كرسيه المتحرك إلى المرافق الصحية وغرفة الطعام، وأي مكان آخر يرغب في الذهاب إليه.

إلا أن هذه المتغيرات الجديدة لم تمنعها أن تكون هي ذات الأم التي أعطته حنانها مبكراً وعاهدته ألا تفارقه، ولا تتوانى عن خدمته مهما كلف ذلك من تعب ومشقة، وهو مدرك لكل ذلك، ويحاول عدم الإثقال عليها بطلباته قدر الامكان، فتصر على عدم إشعاره بأنه عبء عليها، بل أنها سعيدة بتلبية طلباته.

لم يكن خروجها من البيت كثيراً لأجله، فإن أرادت المشاركة في مناسبة ما، يظل قلبها مشغولاً عليه، حيث تستأذنه قبل الذهاب، وتستسمحه إذا تأخرت عودتها.

وبعد إيابها تتحدث إليه عن تفاصيل ما رأت وشاهدت، ومع من تحدثت، لدرجة أنه حفظ الآخرين الذين تتعامل معهم في حياتها اليومية بأسمائهم وصفاتهم وأعمالهم، وأكثر ما كان يعرفه هو المجتمع النسوي الذي تحتك معه والدته، حتى أحداث الحي الذي يسكنون فيه، فهو يعرفها بتفاصيلها كأي شخص آخر، ويسأل أمه باستمرار عن بعض الناس وعن أخبارهم، من مات منهم ومن تزوج، ومن رزق بمولود ومن مرض...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فكان الكثير منهم يبعث له بالتحية والسلام، فعلى الرغم من قلة خروجه من البيت إلا أنه معروف لأبناء الحي الذين يزورونه بين فترة وأخرى.

عاش معها في أدق مشاعرها وانفعالاتها وفي حياتها اليومية، وأصبح جزءاً من فرحها وحزنها، فتشتكي إليه من همّ يسكنها أو حزن يساورها، وفي كثير من الأحيان كان يبادرها بالسؤال عن وضعها ومشاعرها بلغته الخاصة، وحين تكون حزينة يحاول التخفيف عنها بما يملك من حنان.

لم يكن أحمد كثير المرض، فهو يتمتع بصحة جيدة رغم إعاقته، وما هي إلا بعض الرشوحات والنزلات الشتوية التي كانت تباغته في أحيان متباعدة، ثم تغادر جسده بسرعة.

وفي أحد الأيام، أصابه ألم في بطنه، لدرجة أنه لم ينم تلك الليلة، يعبر عن ألمه بصراخ مرتفع، فما كان منها إلا أن نقلته إلى الطبيب برفقة أحد الأقارب، فأعطاه الطبيب العلاج اللازم الذي تحسن عليه، مصرحاً أن هناك مشكلة في الجهاز الهضمي وعملية الإخراج، سببها قلة حركته وتنقله بحكم إعاقته.

وبعد فترة استرد فيها عافيته واشتدت صحته، عادت الآلام بشكل أكثر حدة، وأصبحت تغزوه بشكل متكرر بين حين وآخر، ما أدى إلى ضعف جسده وهزاله، نتيجة فقدانه كميات كبيرة من السوائل، وفقدان شهيته، وقلة أكله ونومه.

تحاول أمه الحنونة باستمرار تحفيز شهيته بإعداد الطعام الذي يحب، وتتحايل عليه ليأكل لقيمات من يدها يشددن صلبه، إلا أن ذلك أصبح أمراً صعباً، فقد اعتاد على كمية قليلة من أطعمة معينة دون غيرها، حتى ذلك يكون بعد إلحاح مستمر منها وطول عناء.

هذا الوضع المتردي الذي وصلت إليه صحته، واحتياجه لرعاية خاصة ومستمرة من الصعب توفيرها في المنزل، دفعها للمبيت معه في المستشفى ومشاركته مرضه وألمه، فهي لا تستطيع مفارقته، ولم يسبق له أن بات بعيداً عنها ليلة واحدة.

وفي تلك الليلة الباردة، كانت تطعمه بعض الحساء، وتقنعه بشرب المزيد من يدها، كانت تضع ملعقة في فمه وأخرى في فمها، لدفعه وتشجيعه على تناول الطعام، وتدعو له بالشفاء بين حين وآخر، وترضى عليه، وترجوه أن يأكل خوفاً على صحته، وهي تعرف كم يحبها ويحب ما تدعوه إليه.

ــ حبيبي يا أحمد، أرجوك.. هذه فقط.

وبعد أن يشربها على مضض

ــ وهذه أيضاً، "على شاني..."

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

حاولت أن تضحكه بتذكيره ببعض المواقف الساخرة التي حصلت معها، تحاول أن تخلق فرحاً له من عمق الألم، إلا أن الابتسامة صعبة المنال على شفتين ثقيلتين، فهو لا يملك أن يحرك غير العينين المتعبتين اللتين تريدان النوم.

نظر إليها وكأنه يريد أن يودعها لتكون آخر ما تشاهد عيناه على هذه الأرض، كما كانت أول شيء شاهده من قبل عند ميلاده، وعندما شعرت بتعبه ونعاسه، غطته ودعت له بالشفاء، ولثمت قبلة على جبينه قد اعتاد عليها منذ أن وضعته قبل خمس وعشرين سنة.

أحمد الذي لم يعرف الحب إلا بعد أن عرف والدته، ولم يعرف الدنيا إلا من خلالها، غطّ في نوم عميق، دخل من خلاله إلى عالم آخر.

فقد مكث مع والدته خمسة وعشرين عاماً، ومن حق والده هذه المرة أن يشتاق إليه ليمكث معه في حياة من نوع آخر لا يعلم كنهها إلا الله.

ــ الله أكبر.. الله أكبر.

صوت المؤذن يعلن صلاة الفجر لتصحو الكائنات من نومها، تسبح لبارئها الذي أحياها بعد الممات، فتصحو عائشة على صوت نداء الحق مستجيبة طائعة.

وقبل أن تشرع بالوضوء، أرادت الاطمئنان على ولدها الذي نام مبكراً وقد أعياه المرض، عندما وضعت يدها على جبينه شعرت به بارداً، لا تنبض فيه الحياة، لا تتحرك أنفاسه. كان هادئاً كما كتب له أن يكون.. صامتاً كما عاش طيلة حياته، تلف جسده سكينة لم ترها على وجهه الأبيض من قبل.

لم تشعر يدها بنبضاته، وحين حاولت إيقاظه تأكدت من موته، وتذكرت أول يوم صارت فيه أرملة صغيرة. فقد ودعت من قبل زوجها، وهي الآن تودع ابنها الوحيد، فلم يكن أمامها إلا أن تصرخ بأعلى صوتها، وكانت صرخاتها الثكلى تنذر بفقدانها العالم كله.

كان كل منهما يدعو لنفسه أن يموت قبل الآخر، لكي لا يتذوق مرارة تعيشها الأم الآن، ويبدو أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعائه رحمة ورأفة به، وحتى لا يتذوق من الكأس الذي شربت منه أمه مرتين، مرة عند رحيل زوجها والأخرى عند وفاته<<

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الجولة الأولى

هو يومه الأول في العمل الذي انتظره طويلاً بعد التدريب، فقد مر بمراحل تعليمية وتدريبية في مدرسة الصم الخاصة، واكتسب منها مهارات ساعدته على التواصل مع الآخرين، تعلم في مدرسته أن الحياة لا تتوقف عند تعطل حاسة أو توقف أي جزء من أجزاء الجسم عن العمل، إلا أن لغة الإشارة قد ظلت وسيلته الأساسية التي لا تفارقه عند التواصل مع الآخرين نظراً لمستوى إعاقته السمعية.

وبعد إجادته لمهارات القراءة والكتابة والمفاهيم العلمية الأساسية حسب البرنامج الأكاديمي الذي تلقاه في المدرسة، أصبح أكثر قدرة على التعايش مع إعاقته، ونمت فيه الرغبة بتطوير الذات، وتراءت له طاقات ومهارات لم يكن يلتفت لها من قبل، فانتقل حسب رغبته إلى مركز التدريب المهني ليتدرب على عمل يتناسب مع قدراته وميوله، فعاش مرحلة هامة من عمره، تخاطب سجيته الإنسانية الراغبة في البذل والعطاء، وتحاكي المرحلة العمرية التي يمر بها كشاب سوف يبني مستقبله من كده وعمله.

تعرف على المهن المتوفرة في المركز، منها ما هو قديم ومنها ما هو مستجد، على اختلاف ما تتطلبه كل مهنة وعمل من قدرات جسدية أو عقلية أو غيرها من المهارات، فأحس بقربه من الكمبيوتر كجهاز يجذبه إليه، ومن خلاله يستطيع تفريغ طاقاته الكامنة واستغلالها فيما هو قيم ومفيد، فتعلق به وانسجم مع برامجه بسرعة لدرجة دفعت والده ليشتري له كمبيوتراً شخصياً اسهاماً منه في رفع مستواه وأدائه بالممارسة اليومية والتدريب في البيت، ما ساعده في تحقيق نجاح جيد بهذا المجال، واجتياز الفترة التدريبية المقررة بسرعة ونجاح يؤهلانه للانتقال إلى أي وظيفة تتطلب أعمال الطباعة أو حفظ الملفات أو إدخال البيانات.

كان يستعرض هذا الشريط من الأحداث الطويلة المتسلسلة لمسيرته التعليمية والتدريبية التي مر بها في المدرسة وهو مستلق على سريره، تتابعه معه وسادته التي أتعبتها تقلباته، لتستكمل عنه تلك الذكريات أحلامه وتمنياته الصامتة التي تسبح في فضاءات رأسه، مشحونة بقلق كبير على أدائه في العمل الذي سيشغل أول أيامه مع إطلالة الصباح القريب.

وكم هي طويلة هذه الليلة، على الرغم من أنها لا تقل من حيث مداها الزمني عن مئات الليالي التي لم يشعر بها سابقاً، لكن ما يميزها عن غيرها صباحها المنتظر الذي سوف يكون له نكهة جديدة مع العمل.

تتجول فيه تخيلاته وتصوراته خارج جدران الغرفة، لتصل بعد زحمة المواصلات إلى الشركة الموعودة التي سيتوظف فيها، يدخلها ويسمع ضجيجاً يملؤها رغم ضعف سمعه، يراقب تحركات الموظفين المنهمكين كل بعمله، فلا يجد عند أحدهم متسعاً لإيماءة ترحيبية، أو ابتسامة عفوية.

يتخيل مديرها الصارم قبل أن يراه، يصدر أوامره وتعليماته لموظفيه، وما عليهم إلى الطاعة والتنفيذ، هذا المدير لا يعرف عن الصم شيئاً، فلم يسبق له أن وظف أصماً في شركته.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقترب أكثر من مكتب المدير لتعترض طريقه سكرتيرته الحسناء، فيخبرها مترجم لغة الإشارة الذي رافقه أنه موظف جديد في الشركة، ولا تزيده لحظات الانتظار غير قلق على قلق.

وحين يدخل ذلك المكتب الفخم أثاثه، يلتقط لنفسه صورة مع مديره المهيب، كان عابس الوجه تغطي جسمه البدين بدلة رجل أعمال داكنة، تتدلى من عنقه ربطة على قميص أبيض، ولا يزال منهمكاً بمكالماته الهاتفية، وأوراق كثيرة متناثرة على سطح المكتب تنتظر توقيعه.

وبعد أن أنهى مكالمته الأخيرة وأشار عليه بالجلوس، تعرف عليه بسرعة، وشرع بتكليفه بمهام العمل، ومع أن المترجم الذي سيرافقه بداية يومه سيهوّن عليه كثيراً من الأمور، إلا أنه يخشى الاصطدام بصعوبة التواصل حين يكون وحيداً في عالم الموظفين الناطقين بالشركة، فيأخذ نفساً عميقاً ويقلبه القلق المتصاعد على الجانب الآخر من جسده الممدد على طول سريره، فيصدر سريره أصواتاً تكسر صمت الغرفة لا يسمعها أحد.

وعلى الجانب الآخر، يستطيع الآن رؤية مكتبه الذي يختلف كثيراً عن المكتب الذي رآه قبل قليل، يعتليه جهاز الكمبيوتر الذي سيعتمد عليه في معظم أعماله. يجلس على كرسيه الدوّار، وتبدأ أصابعه الثقيلة بالعزف بصوت نشاز على لوحة المفاتيح، وكأنه لم يألف هذا الجهاز من قبل، فيبدأ بالطباعة وإدخال البيانات، مع حاجته بين وقت وآخر لمفتاح الإلغاء منذ أن باشر العمل.

وفي تلك الأثناء يدنو منه مسؤوله المباشر في العمل، يحمل بيديه مجموعة من الملفات، يتحدث إليه وتتحرك شفتاه بسرعة، دون أن تستطيع عيون الأصم قراءتها، يصاحب ذلك الكلام تعبيرات في الوجه وعقدة في الحاجبين، إلا أن الأصم لا يفهم مرمى الحديث، فيضطر مسؤوله للجوء إلى الكتابة على الورق لإيصال المطلوب، وقد استغرق ذلك شرحاً طويلاً، مما كان عائقاً أمام سرعة تدفق العمل ومرونته.

أخذ نفساً عميقاً آخر ونظر إلى سقف الغرفة المظلم وسط سكون الليل، ليرى زملاءه يتكلمون مع بعضهم وينظرون إليه، تنبعث من الزاوية الأخرى رائحة الاستهزاء به، وتخرج بين حين وآخر ابتسامات لها مغزى، وكلمات لا يستطيع سماعها، ولكنه يصل إلى حقيقة أنه هو المعني من حديثهم، فيشعر بنفسه وحيداً في عمله فيطوي إلى جسده قدميه ويرفع الغطاء فوق رأسه كمن يستجلب الدفء في برد الشتاء.

يحاول أن يترجم حديثهم ــ ما دام مرافقه قد غادر مبكراً ــ فلا بد أنهم يتساءلون بينهم: ما الذي جاء بهذا "الأخرس" بيننا، إنه لا يفهم شيئاً من عملنا، وهذا ما أوقعه في أخطاء كثيرة، إن مكانه ليس هنا، ليذهب إلى بيته ويريح نفسه من عمل لا يقدر عليه، وينتظر مخصصات الضمان الاجتماعي من الدولة.

فيزداد اضطراب أصابعه المتنقلة بين المفاتيح، وتكثر أخطاؤه، ويقل إنجازه، فيبلع لعابه وتنتفخ أوداجه، وكأن رغبة بالبكاء تريد أن تجتاحه، لولا أن غلب عليه النعاس بعد طول تأمل وسهر، ليوقظه نور الصباح

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الذي بدأ بالتسلل مبكراً إلى عينيه من نافذة غرفته، فينهض من سريره وكأنها المرة الأولى التي ينهض فيها منه.

اقتربت اللحظات التي سينطلق فيها إلى العمل، لتتزاحم ضربات قلبه، وتتداخل في ذاته انفعالات الخوف والقلق والفرحة، أخذ يغسل وجهه الذي لم ينم طويلاً، ويتفحص المرآة أمامه، فلا يجد فيه شيئاً غريباً يختلف عن الآخرين، حتى الأذنين والفم واللسان، هي موجودة كما قدّر لها أن تكون، إلا أن بعض وظائفها قد تعطلت بفعل قادر، لكن ذلك لا ينفي عنه صفة من صفات البشر، أو يسلبه قدرة يمتلكها بالفعل.

يبدأ ارتداء أفضل ما لديه من ثياب، ويستمتع باستنشاق شذى عطره المفضل، فلم تتعطل عنده حاسة الشم، كما هو الحال لدى كثيرين تتعطل حواسهم عند رؤية أو سماع ما يراه الآخرون ويسمعونه، على الرغم من عدم وجود أي خلل وظيفي أو مرض في حواسهم المعطلة.

ويستشعر دفء الأمومة يسري في جسده، عندما قبضت يده كأساً من الشاي قد أعدته له والدته، يحتسي منه رشفات لها مذاق سكري دافيء تجلو عنه ضيق صدره، وتأخذه إلى فضاء رحب.

كم هي فرحة أمه كبيرة بهذا اليوم الذي تعتبره أول حصادها لأعوام مضت، تحاول أن تخفي قلقها عليه، تفرك يديها وتمتمة تعلو شفتيها، وهو مدرك بأنها تدعو له برضا الله و بركة رضاها عليه والتوفيق له في عمله، يومىء لها بإشاراته التي تفهمها بسهولة فقلب الأم ليس بحاجة لإشارة يتعلمها لتخاطب بها فلذة كبدها.

خرج من باب المنزل ترافقه نظراتها إلى الزاوية البعيدة من الطريق، فيدير رأسه نحوها وكأنه يودعها ليختفي ظله عن عينيها قبل أن تغلق الباب داعية له بالتوفيق.

ها هو الآن يدخل الشركة مع مترجم لغة الإشارة المنتدب من مدرسته، لم تكن هالة الشركة التي رسمها في مخيلته موجودة على أرض الواقع، لم تكن هي ببنائها وأبوابها ومرافقها، كان لها في ليله شكل آخر مختلف تماماً عن الواقع وأكثر تعقيداً.

وبينما هما في طريقهما إلى مكتب المدير، بادلهما أحد الموظفين ابتسامة عريضة ارتسمت على محياه، وأرشدهما إلى المكتب المنشود، فرحبت السكرتيرة بهما، وأدخلتهما إلى المدير الذي كان منتظراً لهذا اللقاء.

وبعد أن احتسى كأساً من الشاي كان شبيهاً بمذاق الكأس الذي شربه من يد أمه، اختفى قلقه مع أولى عبارات المدير البشوش، ومع إشارات المترجم الذي شرح له من خلالها طبيعة عمله، وحين رافقه المدير إلى مكتبه الذي سيعمل فيه عرفه على زملائه في المكتب قائلاً:

هذا هو الموظف الجديد الذي حدثتكم عنه، ستكون لديكم فرصة ثمينة لتعلم لغة الإشارة على يديه، والتعرف على وجه آخر للحياة لم تعهدوه من قبل، هو عالم الإعاقة، بل عالم القدرات، فلا تبخلوا عليه بخبرتكم، وسيكون لمساندتكم له في أيام عمله الأولى مردود إيجابي على نجاحه واستقراره بالعمل، ولا تنسوا أنه

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سيكلف بنفس مهامكم، وستسري عليهاالأنظمة والتعليمات نفسها، وستكشف لكم الأيام أداءه الحسن ومثابرته في العمل.

فكان أن استقبله زملاؤه وكأنهم يعرفونه من قبل، وحب الفضول يدفعهم للمبادرة والتواصل معه بالإشارة والكتابة.

وكان مما لفت نظره كمبيوتره المنتظر الذي رآه على مكتبه، فبدأ يمرر أصابعه على مفاتيحه بسلاسة ويسر، حين كلفه مسؤوله المباشر بأولى مهمات الطباعة وإدخال البيانات. لقد أعجب الزملاء من فطنته وحسن استيعابه، فقد كانوا يخلطون بين مختلف الإعاقات وخصائص كل منها، فكانت تغمره السعادة بأول يوم عمله في وظيفته، وكأن هذا اليوم حلم مر طيفه فوق سريره كلمح البصر.

رجع إلى البيت منتصراً في جولته الأولى، وقد كسر حاجزاً نفسياً كان يكبله منذ ليلة أمس، احتضنته أمه بحنانها وقبلته، وقد محى من مخيلته كل الصور التي طبعت مسبقاً عن عمله ومديره وزملائه.

وعندما أسدل الليل ستاره، عاد إلى السرير نفسه، وإلى وسادته المتعبة، ليريحها هذه المرة من قلقه ويحدثها عن يومه الأول في العمل، وعن زملائه ومكتبه وكمبيوتره، وعن كل ما حدث معه، فتقلبه الفرحة إلى جانبه الآخر، ليستعجل يوماً جديداً مشرقاً آخر من العمل، ويحدق في سقف الغرفة لحظات، فينام بعدها بعمق، إلى أن يدغدغ وجهه نور الشمس المتسرب عبر النافذة، فينهض بسرعة... يغسل وجهه ويلبس ثيابه ويشرب شايه ويقبل يد أمه ويذهب وحده إلى العمل.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كغيره من ذوي الاحتياجات الخاصة الذين تملؤ قلوبهم روح مبدعة، تنتظر من يكشف عنها ويتلمسها بعناية لتظهر إلى عالم النور، وجد مازن مكان له تحت الشمس ، فنضجت مقومات القدرة والإبداع عنده بفضل المساندة الاجتماعية والدعم المعنوي الذي تلقاه من أسرته والمحيطين به، ليشق بذلك طريقاً في طلب العلم والمعرفة قد يعجز عنه الآخرون من غير المعاقين، فيتغلب على العقبات بالصبر والإرادة، ويهزم قيود الإعاقة، ليلاقي نفسه محط إعجاب زملائه وأساتذته في الجامعة، فرحاً بنيل الشهادة ــ الحلم التي انتظرها طويلاً مع والديه ــ ليصبح بذلك نموذجاً وقدوة لذوي الاحتياجات الخاصة وغير المعاقين على السواء.

جاء طبيعياً منذ ولدته أمه، متدرجاً في نموه كأي طفل يتمتع بنمو جسمي سليم وقدرة على المشي واكتساب اللغة، إلى أن شارف على اتمام السنة الثانية من عمره، حين هاجم جسمه ارتفاع حاد في درجة الحرارة، وعجزت كل المسكنات عن إخماد جذوتها، فأسرعت به الأسرة إلى الطبيب، وما أن وصل العيادة حتى تشنجت أطرافه، فاضطرت أسرته للمكوث به في المستشفى لتلقي العلاج، وظل والداه يتنقلان به بين عيادات الأطباء لإجراء الفحوصات والتحاليل الطبية اللازمة، يبحثان بكل ما أوتيا من جهد عن حل لمشكلة ابنهما، يرضي ضميرهما ويشبع عاطفة الأمومة والأبوة تجاهه، حتى لو كان ذلك على حساب سعادة معلمين من ذوي الدخل المحدود، تنتظرهما هموم ومسؤوليات مستقبل ابنتين وثلاثة ذكور هم أخوة مازن.

في نهاية المطاف كان لابد من التسليم بقضاء الله وقدره، حيث استقرت رحلة الصراع المريرة بين المرض والعلاج إلى إصابة مازن بالشلل الدماغي الطولي في الجهة اليسرى من الجسم، دون إصابة المراكز المسؤولة عن اللغة والكلام في الدماغ، مما تطلب جلسات مطولة من العلاج الطبيعي امتدت سنوات.

وهكذا، كان على مازن وأسرته التعايش مع الإعاقة والاستعداد لمواجهة حياة ستكون صعبة بكل مفرداتها، فبدأت خطوته الأولى على طريق العلم من إحدى جمعيات المعاقين والتي يسرت له حركة التنقل بين البيت والجمعية، وها هو ينهي الصف الخامس الابتدائي فيها عن جدارة، ليتم دمجه مع طلبة الصف السادس في الأساسي ب؛دى المدارس الحكومية، دون أن يواجه صعوبات أكاديمية تذكر قد تكون إعاقته تسببت فيها، فكان التعليم بالنسبة له نافذته المطلة على الحياة، وحب المعرفة مزروع بداخله، يبحث عنها رغم معاناته الجسدية، تزيده الدافعية رغبة في استباق أقرانه، وعيناه التي تشع فطنة تتطلع لمستقبل أفضل.

حين أتيحت لوالديه فرصة العمل بدولة الإمارات في مجال التعليم، التحق مازن بالصف الأول الاعدادي في إحدى المدارس الثانوية، وحظي هناك بالدعم والاسناد المناسبين من إدارة المدرسة إضافة إلى التفهم الكافي لحاجته الخاصة من قبل المنطقة التعليمية، فاستمر على مقاعد الدراسة بين زملائه ومدرسيه حتى الصف الثاني الثانوي العلمي، حينها شعر ببعض التغيرات التي فرضت نفسها عليه، سيما وأنه دخل مرحلة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المراهقة بكل ما فيها من تفحص وادراك للذات، وتحديد للهوية، وتبلور ملامح الشخصية، فأصبح يقيّم ذاته ويقارن نفسه بزملائه، دون أن يحظى بالاسناد النفسي اللازم، والتفهم الكافي من المحيطين خلال ذاك المنعطف الهام من حياته، فوجد نفسه كمعاق، وحيداً في عراك مع الحياة ومتطلباتها، فلم يجد البيئة النفسية ولا المادية المناسبة المتفهمة له، زيادة على قلة المرافق المادية المناسبة لذوي الاحتياجات الخاصة.

شكلت تلك الضغوط المتراكمة على مازن إحجاماً عن الدراسة، وتراجعاً في مستوى الطموح والدافعية نحو تحقيق الذات، فواصل حياته في البيت منقطعاً عن التعليم لمدة سنتين، تراه فيهما مختلفاً عن مازن الذي يعتبر شعلة من النشاط والذهن المتفتح، المقبل على الحياة رغم العقبات.

كادت أحلامه تتهاوى وطموحات والديه المعلقة عليه تنهار لولا تدخل إحدى المؤسسات الإنسانية والتي قدمت له الدعم الكافي حين كان يتلقى جلسات العلاج الطبيعي فيها، فكان لهذه المؤسسة الفضل في إعادته للمدرسة من جديد، وحصوله على استثناء من وزارة التربية والتعليم، بعد أن اصطدمت أسرته بقوانين الوزارة التي لا تسمح بعودته إلى مقاعد الدراسة.

وعاد مازن للانتظام بالدراسة منتقلاً إلى الفرع الأدبي، وبدأ يحضر لنيل الثانوية العامة في أواخر شهر ابريل، مع أن موعد الامتحانات سيكون قريباً في شهر يونيو القادم، فكان ذلك بمثابة تحد له شعر من خلاله بأن نتائجه ستحدد مصير حياته، تدفعه إلى ذلك كلمات أمه التي ما انفكت ترددها على مسامعه:

- الثانوية العامة يا ابني هي مفتاح الحياة، ويجب أن تحصل على هذا المفتاح..

وبالفعل فقد آتت هذه الكلمات ثمارها حين حصل على معدل (2ر67) في الثانوية العامة، وتوجه مسرعاً صوب أمه في غمرة لحظات الفرح ليهديها نجاحه قائلاً:

- ها أنا قد حصلت على هذا المفتاح الذي انتظرناه طويلاً، وليس هناك من هو أحق منك بهذه الهدية.

ولكن الطريق لم تنته بعد في نظر مازن، وطموحه لا يقف عند حدود كرسيه المتحرك، بل يتعدى ذلك للتفكير بشكل جدي في الالتحاق بالجامعة كأخيه المهندس وأخته المعلمة، فكان له مراده حين عاد إلى وطنه فلسطين، ليلتحق بجامعة طالما سمع عن المساعدات التي تقدمها، والخدمات والمرافق المهيئة التي تتوافر فيها لذوي الاحتياجات الخاصة، وهي جامعة بيت لحم.

وبالفعل التحق بالجامعة، وكان له حضوره بين زملائه، مكوناً في فترة وجيزة نسيجاً اجتماعياً متيناً مع عدد كبير من الطلبة والمحاضرين، تساعده في ذلك روحه المحبة للحياة والناس ولباقته في التعامل معهم وكسب ودهم، فأصبح معروفاً في الجامعة التي تحملت عنه بعض الأقساط الدراسية، واحتضنه زملاؤه في الدراسة، فكان لبنة أساسية في كيانهم، لدرجة أنه كان يتسلم دوماً الكؤوس الرياضية التي يفوز بها فريق الكلية الرياضي نيابة عن زملائه، وكنوع من الاحترام لوجوده بينهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كان مقيماً في السنة الدراسية الأولى في سكن تابع لجمعية تقدم خدماتها لجرحى الانتفاضة الفلسطينية، والتي بدورها تبنته سنة كاملة في الجامعة، بما في ذلك سكنه وتنقله من وإلى الجامعة، انتقل بعدها إلى جمعية للمكفوفين الكبار والتي وفّرت له غرفة مستقلة مع زميل له معاق حركياً أيضاً.

أحب اللغة الانجليزية والكمبيوتر، لذلك تخصص بالترجمة مع شقيقته التي تدرس في ذات التخصص، وفي محطته الثانية من سنوات الدراسة انتقلت أخته إلى تخصص آخر وهو اللغة العربية، بعد أن كانت عاملاً قوياً ومشجعاً له في دراسته لأنها في التخصص ذاته، وتزامن ذلك مع موقف سيء تعرض له من إحدى المدرسات عندما قالت له:

- لن تستطيع الإستمرار معنا في هذا التخصص يا مازن، أنصحك بدراسة تخصص آخر.

قالت ذلك بكل برود أمام زملائه في قاعة المحاضرات، وكل كلمة تخرج منها تنزل عليه ثقيلة كالجبل، وتعبث بحسه المرهف وتذكره بإعاقته التي لم تخطر على باله طوال سنتين مضتا، مسترجعاً ذكريات انقطاعه عن الدراسة في المرحلة الثانوية.

لم يخبر أحداً بما حدث معه، وانقطع فصلاً دراسياً واحداً عن الجامعة، وبعد علم أسرته كان لابد من حضور والده للتدخل في حل تلك المشكلة وتشجيعه على الاستمرار في دراسته وإعادة تنظيم نفسه، وقد لاقى تشجيعاً كبيراً من الجامعة والزملاء بالاستمرار في التخصص الذي يحب، وساعدته إدارة الجامعة ومجلس الطلبة في شراء كرسي كهربائي متحرك، كان عوناً له في السير على الطريق الصاعد نحو الجامعة، فعاد إلى حياته الجامعية لدراسة اللغة الانجليزية وآدابها بنفس جديد، وقناعة أكبر تجاه هذا التخصص.

ظل مازن كذلك ينعم بالأمان والهدوء في مدينة مهد السيد المسيح، والتي ظلت موئلاً ورمزاً للسلام والتعايش بين المسلمين والمسيحيين العرب، إلى أن أعادت قوات الاحتلال الصهيوني احتلال المدن الفلسطينية، فحطمت الأمان الذي كان مازن يعيشه وزملاؤه طلبة جامعة بيت لحم، لتضع أمامه المزيد من العوائق، وتذيقه أياماً من الحصار الخانق كباقي سكان المدينة، فظل حينها وحيداً قابعاً في غرفته، منقطعاً عن العالم الخارجي، تأتيه بطعامه اليومي إحدى مؤسسات الإغاثة الدولية.

وكنتيجة لهذا الواقع المفروض على وطنه والذي لم يعزل نفسه عنه، شارك زملاءه الطلبة مسيراتهم المناهضة للحصار الظالم والمطالبة بالسماح لهم بالعودة للدوام في الجامعة.

وحين تناقلت وسائل الإعلام صوراً عن مسيرة الطلبة وبثتها عبر الفضائيات، كانت مفاجأة ما بعدها مفاجأة لوالدته التي رأته يسير مع زملائه على كرسيه المتحرك وهو يهتف معهم، فدفعها خوفها عليه للاتصال به، ومطالبته بالابتعاد عن الخطر نظراً لوضعه البدني:

- مازن يا بني .. أرجوك لا تعرض نفسك للخطر، يكفيك ما أنت فيه ولا تجعلنا في حالة قلق دائم عليك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فكان رده قاطعاً:

- أنا إنسان كغيري من البشر يا أمي، أعاني مثلهم، وأنتمي إلى وطن أحبه، وإن كنت لا أستطيع السير على قدمي، فهذا لا يعني أنني لا أستطيع الصراخ في وجه الظلم.

لم يكن خوف الأم على ولدها من فراغ، فهي تدرك صعوبة الأوضاع في فلسطين المحتلة، وما عزز ذلك الشعور بالخوف عليه زيارتها له في الصيف الماضي، ورؤيتها لمكان الرصاصة التي انطلقت من إحدى المغتصبات المجاورة، مخترقة نافذة غرفته ومحدثة ثقباً في الجدار ليس بعيداً عن موضع رأسه فوق سريره.

- حمداًالله على سلامتك يا ولدي.. لو أصبت بأي مكروه فسأظل أشعر بذنب الإبتعاد عنك طوال عمري، كيف لي أن أعود بدونك بعد ما رأيت؟!.

- اطمئني سأكون بخير إنشاء الله، جئت هنا لإكمال دراستي، ولا بد أن أحقق الهدف الذي جئت من أجله، كل ما أريده مخنك هو رضاك علي والدعاء لي.

- الله يرضى عليك ...

ولا بد أن تفترق الأجساد مرة أخرى وتعود الأم إلى الإمارات، إلا أن مشاعرها تسكن غرفته في فلسطين، وتظل تزداد ضربات القلب قلقاً عليه..تراقبه وتتحسس خطواته، إلى أن استكمل دراسته الجامعية واقترب موعد حفل التخرج.

وليقين إدارة الجامعة بأن مازن سيكون نجم هذا الحفل، قالت له عميد الكلية خلال حديثها معه:

- سيكون حفل هذا العام مميزاً بوجودك يا مازن...

فأومأ برأسه مبتسماً، يتخيل لحظات هي أقرب إلى الحلم، لا يستطيع تخيلها دزن والدته.

- شكراً ...

جاءت والدته من الإمارات لحضور الحفل ومشاركة ابنها فرحته، وعندما سمعت اسمه عبر مكبر الصوت، وشاهدته يعتلي المنصة بكرسيه المتحرك مرتدياً ثوب التخرج، رافعاً هامته، وعيناه تذرفان دموع الفرح والسعادة، بعد سنوات كان فيها أقوى من الصبر، تمتد يداه لتسلم شهادته من عميد الكلية، كحصادٍ لأربع سنوات من الجهد والتعب، يصافح أساتذته الذين قبّلوه بحرارة، مع تصاعد حرارة تصفيق زملائه الذين يعرفونه كشمس تشرق على جامعتهم كل صباح...

أمام هذا المشهد المؤثر، لم تتمالك الأم نفسها في تلك اللحظات، فاعتلت المنصة هي الأخرى وعانقت ابنها وقبّلته بحرارة، وكأنها تراه للمرة الأولى، فامتزجت دموعهما معاً وقلباهما يبتهلان إلى الله حمداً وشكراً على حلم تحقق وعلى لحظات طال انتظارها.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

واستشهد شادي

هو فتى أصم يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، تربى في حارة القريون بالبلدة القديمة من مدينة نابلس، يعيش مع والده الأصم والمعاق حركياً أيضاً نتيجة إصابته في الانتفاضة الأولى، أما والدته فهي معلمة للغة الإشارة، وقد أخذت على عاتقها أعباء إعاته وإخوته الصم أيضاً علاء وبراء، والذين يتلقون تعليمهم في إحدى مدارس الإعاقة السمعية.

عندما بدأت انتفاضة الأقصى، لم يعش بمعزل عن تلك الأحداث، بل أصبحت نشرات الأخبار محط اهتمامه، وبديلاً له عن الرسوم المتحركة، كما هو حال الأطفال الذين أرعبتهم مناظر استشهاد الطفل محمد الدرة بين أحضان والده، فأصبحت حاجتهم للأمن مفقود تحقيقها حتى من أقرب الناس إليهم.

كان شادي دائم الحركة والنشاط، كفراشة تنتقل بين أزهار الحديقة، سريع البديهة، يبادر دوماً إلى خطوط المواجهة ويشارك في المسيرات، يحضر معه إلى مدرسة الصم أعلام فلسطين، وبقايا الرصاص الذي تطلقه قوات الاحتلال على المتظاهرين، يصنع لزملائه "المقاليع والقفازات" سلاح الصغار الوحيد في مواجهة الآلة العسكرية الضخمة.

تتقد بداخله شعلة متصاعدة من اللهيب، لم تطفىء جذوتها إعاقته السمعية، وكانت تتبدى مظاهر حبه لوطنه من خلال رسوماته التي تمتزج فيها ألوان الشهداء، ويصور فيها الدمار الذي يراه يومياً.. يرسم الأقصى ويزرع على قبته العلم الذي يحب، وطائرة للعدو تحلق في السماء تقصف بيتاً آمناً، وأطفال يدافعون عن مدرستهم بالحجارة.

حتى ألعابه مع زملائه في المدرسة، ومع رفاقه في الحارة، أصبحت انعكاساً للواقع الذي يعيش، يتقلد كل منهم الأدوار التي يرونها أو يسمعون عنها. يقوم أحدهم بدور الجندي، والآخر بدور الجريح أو الشهيد، يرفض شادي أن يبقى أسيراً في عالم الصمت، ليخرج من الدائرة المغلقة إلى امتداد رحب يتغلب فيه على محدودية فعل الحواس.

وفي صبيحة يوم جديد من المفترض أن يذهب فيه الفتى الأصم إلى مدرسته، حاملاً حقيبته وكتبه بعد أن أدى واجباته البيتية في اليوم السابق، يصحو هذه المرة قبل موعده بكثير، على أصوات انفجارات عالية رغم ضعف سمعه، بدأت من جرائها أركان البيت الحجري القديم الذي يقطنه تهتز مع كل انفجار، فأدرك أن قوات الاحتلال اقتحمت المدينة وباتت قريبة جداً من بيته.

حينها.. كانت الدموع تنساب من عيني أمه، ويعلو صراخ أخوته في حضنها، وأبوه قابع على سريره دون حراك، تنتابه مشاعر الخوف على أبنائه، وشعوره بالعجز عن حمايتهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي تلك اللحظات العصيبة.. أسرعت الأم للاتصال بالصليب الأحمر، لطلب النجدة والمساعدة، قبل أن يحلّ الموت بصغارها، وأخبرتهم بصوتها المخنوق المتهدج أن الجرافات تكاد تهدم البيت بمن فيه، إلا أن الرد الخجول جاء عاجزاً عن منع ذلك، فقوات الاحتلال تمنع فرق الانقاذ والطوارىء وأية جمعيات إنسانية أخرى من دخول البلدة القديمة، فتسلم الأم أمرها وأسرتها إلى الله، وتجلس مع صغارها مراقبة الموت الذي يقضم المسافات بين كل دقيقة، وما كان لأحد خارج هذا الموت أن يعلم شيئاً عن فظاعة ما يرتكب فيه.

وبعد أن انسحب الموت من قلب المدينة، تحاول الحياة أن تنهض من وجعها، لتتفقد ما حل بها من خراب، وتضمد جراح أبنائها بعد أيام عصيبة لا يعرف فيها الجار ما حلّ بجاره، فإذا بأسرة جيران شادي بأكملها والمكونة من ثمانية أفراد، يستشهدون تحت ركام المنزل الذي هدمته الجرافات على من فيه، ومن بين الشهداء أصدقاؤه الصغار، الذين كان بالأمس يلعب معهم لعبتهم المفضلة "يهود وعرب".

وينجو شادي وإخوته هذه المرة من الموت المحقق، وتنسحب قوات الاحتلال مخلفة وراءها أكواماً من الدمار والخراب، ويعود بطلنا الأصم إلى مدرسته ليحدث أصدقاءه ومعلمته بلغة الإشارة عن هول ما حدث أثناء الاجتياح، ويقص عليهم أيام الحصار المريرة التي قضاها مع عائلته بلا ماء ولا غذاء ولا كهرباء، ويبتكر إشارات جديدة ليخبر زملاءه بها كيف كان يجوب الحارة وسط الليل، باحثاً عن طعام لإخوته بين ركام المحلات التجارية المهدمة، مخترقاً نظام حظر التجول، وكيف اقتحم الجنود منزلهم وحطموا محتوياته، بما فيها المعينات السمعية الخاصة به وأخوته، والتي تبرعت لهم بها إحدى الجهات الخيرية.

لقد كبر شادي فجأة، مع كبر الأحداث التي عايشها وفرضت نفسها عليه، نسي طفولته البريئة تحت أنقاض منازل أصدقائه، وبدأت ملامح الرجولة تتبدى على وجهه رغم صغر سنه، لقد تخلى عن الطفولة التي يتمتع بها أطفال العالم، وهذا ما أظهرته رغبته في تعلم مهنة لمساعدة والدته بمصاريف البيت، حيث باشرت مدرسة الصم بإجراءات تحويله إلى إحدى مؤسسات التأهيل المهني في منطقة سكناه.

وفي يوم كان فيه شادي بين مجموعة من الناس الذين ضاق بهم الحال واضطروا لكسر نظام حظر التجول المفروض على مدينتهم، من أجل الحصول على قوت يومهم والابقاء على حياتهم.. انطلقت رصاصات الغدر بشكل عشوائي نحو جموع المواطنين والأطفال الذين خنقهم الحصار، غير مفرقة بين صغير وكبير، وبين ناطق وأصم، لتخترق إحدى الرصاصات ما بين أذن شادي وفكه، دون أن تسمع أزيزها أذناه، حين كان يلعب مع رفقته في الحارة، ولما ارتمى أرضاً حسبه الأطفال يمثل دور الشهيد، إلى أن رأوه مضرجاً بدمائه، فاقتحم أحد المارة المكان رغم كثافة النيران وأخلاه إلى المستشفى، وفي لحظات، تتبدد أحلامه الصغيرة في التدرب على مهنة يساعد من خلالها أسرته، ليجد نفسه أمام إعاقة أخرى حركية، إن كتب الله له الحياة من جديد.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مكث شادي تسعة شهور على سرير المستشفى دون حراك، وحل به ما حل بوالده من قبل، حين أقعدته رصاصات مماثلة على كرسيه المتحرك، بعد أن قضى أربعة عشر عاماً في سجون الاحتلال.

كانت الشهور التسعة التي قضاها في مشفاه، أشبه بتلك التي قضاها في رحم أمه، معتمداً بشكل كامل عليها حتى في قضاء أبسط حاجاته اليومية، حتى طعامه الخاص، لابد وأن يمر بجهازه الهضمي وبطريقة خاصة، فكّاه غير قادرين على مضغه، وتعجز رئتاه عن التقاط أنفاسها بحرية ودون معاونة الأجهزة المساعدة، فظل كذلك متنقلاً خلال رحلة علاجه من مستشفى لآخر، ومن غرفة عمليات لأخرى دون أن يتمكن من إخراج آهاته المدفونة في جسده النحيل.

هي عيناه فقط اللتان تقرآن كل ما يحدث حوله، تشعان فطنة وذكاء، يستقرىء بهما شفاه الآخرين، ويصدر ايماءاته للرد عليهم، حتى لغة الإشارة التي برع باستخدامها قد تاهت بين أوجاع الإصابة وسكون الحركة، فقد سرقها المحتل من بين يديه الثقيلتين، وضاعت ملامح وجهه وجسده بين آثار الأدوية وآلام وضعه الصحي.

ظل شادي كذلك.. إلى أن انتصر على عدوه، فنال الشهادة التي كانت قد اقتربت من بيته قبل عام، حين استشهد ثمانية من جيرانه، ليرتقي للعلا شهيداً بجوار ربه وطيراً من طيور الجنة، يسبح في فضائها مع من سبقه من الأطفال الشهداء، الذين ينتظرون قرار محكمة العدل الإلهية، لتثأر لهم ممن اقترف بحقهم جريمة قتل الطفولة البريئة في مهدها، دون ذنب سوى أنهم أطفال فلسطين.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من حقي أن أتعلم

من حقي أن أتعلم كأقراني الذين يذهبون إلى مدارسهم كل صباح، من حقي أن أكون بنيهم.. أن أرافقهم.. أن يكون لي معلمة كمعلتهم، وأقلام ألون بها، ودفاتر وكتب أتصفحها.. ليس ذنبي أن أكون معاقة لا تستطيع قدماي حملي إلى المدرسة والتنقل بين مرافقها وصفوفها، بل هو ذنب مدرستي غير المهيأة مرافقها لاستقبالي.. لماذا لا يكون لي حقيبة أحملها وتصطف فيها كتبي وقرطاسيتي، وواجبات مدرسية أؤديها في البيت، بدلاً من الوقت الذي يفترس حياتي يوماً بعد يوم؟

هل هو قدري أن أبقى حبيسة البيت أنتظر عطف الآخرين علي وتكرمهم لمساعدتي؟ متى يكون لمن هم مثلي مكان بين الآخرين من تلاميذ المدارس؟!

بهذه الكلمات والتساؤلات المؤثرة عبّرت زينب ابنة العشر سنوات عن حبها للتعليم ورغبتها الطفولية للالتحاق به، وعيناها الواسعتان المرصعتان في وجه مستدير أبيض، تحاولان الصمود دون دموع من خلف نظاراتها الطبية، أمام انفعالات تذكرها بماض كان قاسياً عليها.

زينب هي الابنة الكبرى في أسرتها، لها ثلاث أخوات وأخ واحد، تقطن معهم في قرية مجاورة لمدينة صور في الجنوب اللبناني، والدها موظف في الشرطة وأمها ربة بيت، توفيت أختها شقة توأمها لتلتقط زينب أنفاس حياتها الأولى في لحظات رحيل شقيقتها، وتمضي وحدها دون أن تعلم بالقدر الذي يخبىء لها عكازين صغيرين لمساعدتها على التنقل، في الوقت الذي لم تقو فيه قدماها على عمل ذلك.

حدثتني عن ذاك اليوم الذي توجهت فيه مع والدها إلى مدرسة في منطقة سكنها من أجل إلحاقها بالتعليم النظامي، إلا أن طلبهما قوبل بالرفض بسبب إعاقتها، وحاجتها للمساعدة عند استخدام المرافق الصحية، وعدم تهيئة مداخل المدرسة ومرافقها لاستقبال ذوي الاحتياجات الخاصة.

- ... فتحسست عكازي ورجعت مع والدي صوب البيت.

وفي إحدى المدارس التي وافقت على الحاقها مع طالبات الصف الأول، كان لها قصة مؤلمة خلال أسبوعين من الدوام، قد امتدت آثارها حتى اللحظة، وأشعرتها هذه التجربة بإعاقتها وثقل عكازيها.

- ... لم تكن المعلمة تنظر إلى وجهي بقدر ما كانت تنظر إلى عكازي، كانت تعاملني كشيء مختلف ضعيف لا يقوى على شيء، تسألني أسئلة سهلة، وتوحي لي بالإجابة، ولم تمنحني حتى الفرصة في التفكير، أحسست بوجودٍ شكليّ لي في الصف ونوع من الشفقة.

مدرستي التي ضاقت عليّ بساحاتها الواسعة وصفوفها الكثيرة، كنت أحبها على الرغم من مداخلها غير المهيأة، وأدراجها العالية، إلا أن مشكلتي الكبرى كانت تتمثل بالمرافق الصحية، فلا مكان فيها لعكازين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صغيرين أو كرسي متحرك، لذلك تطلب الأمر مساعدة مستمرة من الآخرين، فتحملتني المدرسة أسبوعين متتاليين، إلا أنها ضاقت بي ذرعاً بسبب حمام لا يناسبني.

كنت أحاول ألا أسبب قلقاً أو ازعاجاً لمعلمتي والآخرين، وأحاول الظهور بأكبر قدر من الاستقلالية، حتى لا تغير إدارة المدرسة وجهة نظرها تجاهي، إلا أن حاجتي لاستخدام الحمام كانت تؤرقني وتجعلني أفكر مائة مرة قبل أن أطلبها، بل كنت أحاول الصمود لتأجيل قضاء حاجتي إلى ما بعد الدوام، إلا أنني أدركت أن ذلك لن يدوم طويلاً، فأنا أمام أمر واقع، إما يتقبلني أو يرفضني، وللأسف كان الخيار الثاني هو الحل من وجهة نظر إدارة المدرسة.

جلست في البيت حبيسة أربعة جدران وعكازين، لا أدري ماذا أفعل، شعرت وكأنني اقترفت ذنباً طردت على إثره من المدرسة، فهل هو ذنبي أن أكون طفلة ذات احتياج خاص، أم ذنب المدرسة التي لا تراعي من هم في مثل حالتي.

صرت أراقب المدرسة من بعيد، أشاهد طابور الصباح الذي كنت جزءاً منه، وأسمع أناشيداً حفظت جزءاً منها، أظل أرددها خوفاً من نسيانها، على أمل العودة إلى ترديدها مع التلاميذ مرة أخرى، أسمع دقات الجرس، وازدحام التلاميذ أثناء تنقلهم إلى الصفوف، أسمع ضحكات كنت جزءاً منها، وأتابع ألعاباً تشتاق لي على التلة البعيدة، كنت أعيش معهم عن بعد على أمل أن يكون لي مقعد بينهم في المستقبل.

وحين يعود أخوتي وأبناء الجيران من المدرسة وقت الظهيرة، أذهب إليهم لأتفقد أدواتهم المدرسية وأتصفح دفاترهم وكتبهم، تعجبني أقلامهم وألوانهم وأتمنى أن يكون لي مثلها، وفي الليل كنت أبكي بيني وبين نفسي بحرقة وألم حتى تبتل مخدتي، وأحلم بليل يتبعه صباح أغادر فيه سريري نحو مدرستي، وكل يوم ألح على والدي لبذل قصارى جهده من أجل إعادتي إلى المدرسة من جديد.

... بقيت كذلك لا مذاق للحياة في فمي، ولا قيمة للوقت الذي يمر دون أن أشعر به، إلى أن بلغت التاسعة من عمري، وزارت بيتنا معلمة الدعم الأسري بإحدى الجمعيات الخيرية، تكلمت معي ومع والدتي عن جمعيتها، ووصفتها لنا كمكان خلق ليحتضن من هم يعيشون مشكلتي، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما طرحت المعلمة على والدتي فكرة الحاقي بالجمعية مع ذوي الاحتياجات الخاصة.

إنها فرصتي للتعلم ورؤية الذات، فرصتي لأكون كغيري من التلاميذ، أحمل دفاتري وأقلامي، وأتعلم، يكون لي معلمة أحبها وتحبني، ومدرسة أنتمي إليها، وأصدقاء أتبادل معهم فرحي وحزني.

ومنذ أن التحقت بالجمعية عرفت معنى اللعب والفرح، صرت أرسم وألون، أصبح لي مجموعة من الأصدقاء بعد أن كنت أفتقد هذا الإحساس.. الكل يحبونني هناك، ويشجعونني على تلقي تمارين العلاج الطبيعي كي أمشي بلا عكاز في المستقبل إن شاء الله.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ــ هيا يا زينب تشجعي... أمامك خطوات قليلة لتصلي هناك وحدك، تغلبي على ثقل رجليك.. أنت قوية وتستطيعين ذلك..

هكذا تحثني إختصاصية العلاج الطبيعي على المشي بلا عكاز وقت جلسات التدريب، وهي تقابلني على بضعة أمتار، وحين أصل إليها تضمني بحنان، وإذا تعثرت تستفزني كلماتها للابتسام والنهوض من جديد.

ــ صفقوا لزينب، إجابتها صحيحة.. لقد حلّت المسألة بنجاح..

وهذه هي كلمات معلمة الرياضيات لي، بعد أن أضع الجواب على السبورة، وأستدير نحو مقعدي، فيدوي صوت الأكف بالتصفيق.

حين التقبت بها للمرة الأولى، حدثتني عن مشاعرها هذه باسهاب،ولم تستطع الدمعة الصمود في عينيها، ولكي تظهر لي بعض ما تعلمته في المدرسة أمسكت القلم وقالت:

- لولا التحاقي بالجمعية لما استطعت الكتابة، ولولا معلماتنا اللواتي أحطنني برعايتهن، ولازلن يبذلن جهودهن معي ومع كل أطفال الجمعية من أجل تمكيننا من الاعتماد على النفس، لما استطعت الامساك بالقلم.

كانت تتكلم وهي تحاول السيطرة على القلم بأناملها الرقيقة رغم حركة عضلاتها اللاإرادية، وبدأت تتشابك الخطوط والحروف على صفحتها البيضاء، لتشكل بمجموعها كلمات مختصرة، عاشت معها زينب وشعرت بحاجتها لها، كتبت لي كلمات صغيرة لكنها بمعناها كبيرة، فكانت كلماتها عنوان لقصتها هذه مع الحياة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الطلقات الثلاث

في جامعته التي قصدها لإكمال دراسته بعد أن أنهى الثانوية العامة بتفوق، دأب على جني النجاح تلو الآخر، وعلى الجانب المقابل من حياته الأكاديمية، كان للوطن مكان في قلبه ووجدانه، وكيف لا وهو أحد أبنائه الذين يعانون من مرارة الاحتلال وقساوة بطشه وحصاره.

في ذلك اليوم المحفور في ذاكرته، سار مشاركاً بإحدى المسيرات التي نظمها طلبة الجامعة، تضامناً مع زملائهم المعتقلين في السجون، يذوب صوته في هتافاتهم ضد الظلم القابع في مدينته، وجنون العدوان المحموم تجاه شعب أعزل، إلا من إرادة وعزّ هما جزء منه.

وفي سنته الدراسية الثالثة هذه، كلما اقترب من تحقيق هدفه ونيل شهادته، يصبح للطموحات التي يدنو منها يوماً بعد يوم، معنى أكبر، فهناك من ينتظره بفارغ الصبر على طرف السنة الدراسية الرابعة والأخيرة.

ليلى... ابنة عمه التي تربى معها وأحبها منذ الصغر، لتكون عروسه المنتظرة، والتي ستبني معه عش الزوجية، لا زال يقرأ صورتها في كتبه الدراسية، ويسمع صوتها الآسر في محاضراته، وكلما اجتمعت عليه هموم الحياة وضغوط الدراسة، ترك العنان لخياله يسبح مع محبوبته في بحر أمنياته وأحلامه المستقبلية.

يلتقط صورتها من محفظته، ليمسح وجهها بنظرة حب دافئة من عينين هائمتين، ويلمع في عالمه بريق، يقشع عن فضائه سحب الغمام التي راكمها التعب، فتحاكيه الصورة بصمتها، وتدفعه لإكمال مشواره الطويل، وتشد من عزيمته للوصول إلى مبتغاه، كطفل ينتظر جائزته المفضلة، بعد إتمام جهد قام به،ويعيدها إلى مكانها برفق، مع أن الصورة الورقة قد لا تمثل شيئاً بالنسبة له، مقارنة مع صورة ليلى المحفورة في ذاكرته ووجدانه والتي طبعتها سنون من العشق ولونتها أطيافه.

تزحف مسيرتهم صوب الجنود المتمترسين في قلب آلياتهم العسكرية، فيرشقهم الطلاب بالحجارة؛ سلاحهم الوحيد، ويرشقهم جنود الاحتلال في المقابل بزخات نيران أسلحتهم وبنادقهم الفتاكة، ووسط هذا الصخب من أصوات الرصاص وكثافته، وسحب الغازات المسيلة للدموع التي غطت المكان، يشعر حسن بوخزة دافئة تخترق ظهره، فتضيق أنفاسه، وتضيع الآهات المخنوقة برائحة الغاز، وما هي إلا خطوات معدودة، يشعر خلالها بلحظات دوار تغيبه عن وعيه، ليكمل له رفاقه القصة فيما بعد... وتتلقفه الأرض التي تعرفه جيداً، كطالب اجتهد على المرور منها كل يوم إلى جامعته.

أهي رصاصات الغدر اخترقت ظهره كما غدرت بغيره من المتظاهرين؟ أهكذا هو الإحساس السريع الغامض، الذي اغتال دماء من سبقوه من الشهداء والجرحى؟

لم تكن هذه الطلقة هي آخر حكاية حسن، بل كانت بدايتها مع صراع من نوع جديد، فهناك أكثر من دمه النازف على الأرض، وليال قاسية من الألم عاشها في غرف المستشفى، ما دامت تلك الطلقة قد أصابت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عموده الفقري، لتحوله إلى إنسان آخر، لم يعد يقوى على المسير من ذاك الشارع المؤدي إلى جامعته، وصعود أدراج محاضراته، هذه هي صدمته الكبرى ومنعطف التحول الذي قلب كيان حياته، كان يأمل في نقطة يتحول فيها مسار حياته إيجاباً عند زواجه من ليلى، إلا أنها كانت نقطة... بل بقعة، في ظهره، غافلته بها الطلقة الغادرة، لتسير به إلى اتجاه آخر لم يكن يتوقعه، هو اتجاه الإعاقة.

يا إلهي.. لا أستطيع أن أصدق ما يحدث..! يصرخ حسن وترتد إليه صرخاته حين تصطدم بجدران الغرفة، وتهطل دموعه بغزارة لآلام في جسده، وآلام أكثر شدة في نفسه، مخترقاً بذلك قوانين عالم قاس لا يبكي فيه الرجال ولا يتأوهون.

فمن السهل عليه أن يتخيل نفسه شهيداً ارتقى إلى العلا كمن سبقوه، لكن من الصعب عليه أن يضع نفسه في هذا الموقف الذي هو فيه الآن، والذي لا يحسد عليه عدو أو صديق، ولم يجرؤ قط أن يدرجه حتى في أحلامه، فالشهادة انتقال من حياة إلى أخرى أكثر سعادة ونعيماً، ولكن هل هذا ينطبق على حياة الإعاقة؟

بدأ يتفحص جسده الذي كان قوياً، ليجده قد خرج لتوه من عمليات جراحية تنتظر الالتئام، رجلاه ثقيلتان ترفضان الانصياع لأوامره بالوقوف عليهما، يحاول أن يتسامى على الآلام التي تغزو كل أطرافه، يحاول أن يوقظ نفسه من كابوس يثقل كاهله، ليجده واقعاً مراً لا يتذوق علقمه إلا هو، فيضمه المحيطون به، في محاولات يائسة منهم لتهدئته. منهم من يمسح دمعه، ومنهم من يطلب منه الصبر واحتساب الأجر عند الله سبحانه وتعالى، ومنهم من يحاول زرع الأمل في نفسه متفائلاً بعلاجه في المستقبل، وكل هذه الكلمات لم تكن قادرة على أن تشفيه من فجيعته، أو تخرجه من ظلام دامس خيّم على حياته، فيجد فيه بصيص نور يهديه إلى نهاره السابق الذي اعتاد السير فيه.

وعند خروجهم جميعاً، يغلق عليه الباب وحيداً لينفرد مع تساؤلاته التي يطرحها على مستقبل مجهول، قيدته قوانين إعاقته الجديدة، يتخيل أمامه وجه ليلى التي عشقته وعاهدته على الزواج منه، فهل تستطيع أن تغير مسار كل طلقات الحب التي سددتها ليلى صوبه، طلقةٌ واحدة سددها العدو صوب ظهره؟

ويخاطب نفسه:

ــ أحبتني حسن، الشاب القوي الوسيم الذي كان يسير بجوار بيتها كل يوم ليلقي نظرة عليها، أو يسلم على المكان الذي تسكنه، والذي كان محظوظاً إن تكلم معها لحظة أو سمع عذوبة صوتها، أو حين يتمكن من إيصال شذى عطره لها قبل ذهابه إلى الجامعة في صبيحة كل يوم.

أما الآن... فلا القدمان قادرتان على المسير، ولا الجسد يقوى على الحركة، فما الذي سيجبر ليلى على هذا الحب؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وماذا عن الجامعة؟ وكيف ستطؤها قدماي اللتين لا تقويان على السير بعد اليوم؟ كيف سأواجه زملائي وأنا متربع على كرسي الإعاقة، أو متكأة قامتي على عكازين، وتكاد نسمة الريح تسقطني أرضاً؟ كيف ستستقبلني الأدراج وزحمة الأماكن واكتظاظ الطلاب؟ هل سيكون لي متسع على مقاعد المحاضرات؟ لا أريد أن أرى مشاعر الشفقة والعطف عليّ تكسو وجوه زملائي، لا أستطيع تحمل ضعفي في بيئة لا يصمد فيها إلا القوي.

ويعود ليطرد التشاؤم من رأسه مخاطباً نفسه قائلاً:

ــ لا، لا يا حسن، إن ليلى ليست كذلك، إنها تحبك جسداً وروحاً وقلباً، وإن كان جسدك قد أصابه الوهن، فروحك التي تعشقها باقية على عهدها، بل إن وضعك الصحي سيزيدها قرباً منك وتمسكاً فيك، وسيساعدك ذلك على تخطي حزنك وألمك.

أما الطلاب فسينظرون لك بعز وفخار، كما ينظرون لجرحى الانتفاضة ومناضليها ويمجدونهم، وستحتضنك الجامعة وستفتح لك أبوابها بطلاً قهر الموت وعاد إلى الحياة من جديد ليلتحق بركب زملائه.

هذه الوساوس والشكوك، قطعها صوت باب الغرفة الذي فتحت دفته لتطل منه ممرضتان بشوشتان، تدفع إحداهما أمامها كرسياً متحركاً شاغراً، ينتظر من يشغله، لقد أعاده هذا المشهد إلى أفكاره الأولى، عندها.. تخيل يديه تحركان عجلات الكرسي، في الشارع وفي البيت وفي الجامعة، وأعين الناس ترمقه بنظرات لا تخلو من شفقة.

ــ هيا يا أحمد، لنحاول النهوض من السرير.

قالت إحداهما بلطف، وكأنها تقنع طفلاً صغيراً لركوب دراجته الجميلة التي اشتراها له والده لتوه، أو أنها أم تستنهض ابنها الكسول من نومه العميق، فقد تأخر عن مدرسته، ولكن النهوض هذه المرة، لا يعد بالنسبة لأحمد أمراً يسيراً، فقد تعود أن ينهض من سريره لوحده، لتقوده رجلاه إلى حيث يشاء، لا لينتقل إلى كرسي تقيد عجلتاه حركته.

وتساعده الممرضتان برفق حتى ينتقل إلى كرسي هو أشبه بصخرة متحركة، وفي نفسه كلمات وتساؤلات يرغب اسماعها لكرسيه:

ــ أيها الرفيق غير المرحب به.. كيف سترافقني طوال حياتي؟ هل ستقودني أم سأقودك؟ هل ستكون لي صاحباً حميماً أم عدواً لدوداً، ليتك تكون عدوي لتطردني من عرشك، حتى أعيش حراً طليقاً على قدمي.. لست أهوى الجلوس في حضنك.. ولكنني مجبر على ذلك.

احتاج حسن فترة زمنية حتى تعايش مع كرسيه المتحرك، وتطلّب منه الأمر بذل مجهودات مضاعفة خلال فترة التدريب، إلى أن استطاع التنقل بين سريره وكرسيه، وتحريك الكرسي في كل مرة، حتى أصبح هذا

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الكرسي وسيلته في التنقل، وبدأت ملامح العدو الشرير تتبدى في طيف صديق مساعد لا ذنب له في إعاقته، بل جاء ليقدم ما عنده له، ويأخذ بيده ليدخله العالم من باب جديد، بعجلتين تفركهما يداه.

لقد آن الأوان ليخرج حسن من المستشفى، ويعود إلى بيته الذي خرج منه آخر مرة قاصداً جامعته، يعود وبرفقته كرسيه الذي بدأت تربطه به صداقة، ويبدأ الآخرون يتدفقون إلى بيته لتهنئته بالسلامة، وفي عيونهم عزاء لرجليه الممددتين باستسلام على السرير.

قبلات من هنا وهناك.. وحديث يوحي بالشفقة غالباً، ويبعث على الهمة من قليلين... عبارات تحث على الصبر... وأخرى على الإيمان بما كتب الله وقدر، وفي الصدور كلام كثير لا يبوح به أصحابه إلا خارج المنزل.

وبعد أن ذبلت الورود التي أحضرها من عادوه، وأخذت الهدايا تمل أماكنها على الطاولة وفي الدولاب، وبعد أن خفّت حركة الأرجل إلى البيت، وكأن الآخرين قد أخذوا نظرات الوداع وعادوا من حيث أتوا، حينها لم يكن هؤلاء هم ما يشغل بال حسن، بقدر ما يشغله شيء واحد فقط، وهو انتظار زيارة منها حتى لو كانت متأخرة.

ويحاكي نفسه متسائلاً:

ــ أين هي...؟ لِمَ لمْ تأتِ بعد..؟ ما الذي أخرها حتى الآن؟

ألم تدرِ أنني جئت..؟ لقد حضر عمي وأولاده وسلموا عليّ، وخجلت أن أسألهم عنها.. أكرهت أن تراني بهذا المنظر؟

كل يوم كان يمر، ويزداد فيه الشك والخوف لديه، إلى أن جاءت أخيراً بعد أن وصلها سؤاله عنها...

دخلت غرفته برفقة أخته وسلّمت عليه، لم تشكّل لها كتلة جسمه الجاثم على الكرسي أدنى استغراب، وكأنه منظر مألوف لديها، ومن الواضح أن صورته قد وصلتها تفاصيلها وأبعادها من قبل.

كان الخجل يزيدها فتنة وجمالاً، وعيناها العسليتان تقتنصان النظر إلى رجليه، وحين تشعر بأنه يلاحظ نظرتها تهرب بهما إلى مكان آخر من أرضية الغرفة.

... ويبادر بكسر لحظات من الصمت سادت أجواء الغرفة:

ــ كيف حالك يا ليلى؟ هل أنت بخير؟

ــ ... الحمد لله... (ولا زالت يداها تتشابكان بخجل وارتباك، وعيناها بعيدتان عن مرمى عينيه).

وفي هذه اللحظات خرجت أخته من الغرفة، وكأنها ستتيح لهما مجالاً أوسع للحديث.

يحاول تلمس مشاعرها:

ــ ما بك يا ليلى؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ـــ ... لا شيء...

تستجمع قوتها، محاولة إخراج الكلمات التي كانت قد جمعتها في فمها منذ أن أصابته الطلقة، وكلما اقترب الحرف الأول من لسانها، شعرت بالحرج، وازدادت ضربات قلبها واحمرّ وجهها، فتبلع ريقها لتعيد ترتيب الكلمات وتستجمع قوتها مرة أخرى.

وأخيراً تحررت الكلمات المأسورة في ثغرها منذ فترة.

أخذت شهيقاً عميقاً وقالت:

ـــ حسن... أنت ابن عمي ومثل أخي، يجب أن تنسى ما مضى، الزواج قسمة ونصيب.

قالتها بسرعة ودون أن تنظر إليه، تمسح دموعاً انهالت على وجنتيها اللتين ألهبتهما حرارة الارتباك والقلق.

وبسرعة أيضاً.. استدارت وركضت صوب الباب المفتوح لتختفي خلفه.

ـــ ليلى... ليلى...!

في تلك اللحظة، دخلت أخته لتسأله عما بها، وما دار بينهما من حوار:

ـــ هذا ما كنت أتوقعه، هذا ما كنت أخشاه...

يردد هذه العبارات ووجهه تحمله كفاه، يداري غضباً شديداً قد حلّ به.

كانت عباراتها بمثابة الطلقة الحقيقية والتي شعر بقوتها وألمها حين أطلقت صوبه، وهذه المرة قد أصابت قلبه، لتحكم على حبه بالإعدام!

ماذا تبقى له الآن بعد ليلى؟ جامعته التي كان ينتظر التخرج منها بفارغ الصبر حتى يتزوج ليلى؟ أم كتبه التي كان يقرأ اسمها فيها مع كل سطر؟ إن كانت ليلى قد تخلت عنه فمن سيقف إلى جانبه الآن؟

حتى جمال.. صديقه الحميم وزميله في الدراسة لم يأت لزيارته سوى مرة واحدة، وعندما عزم على الاتصال به، كان رده متململاً ومتذرعاً بالدراسة والامتحانات، في حين كان جمال في السابق لا يكف عن المجيء عند صاحبه من أجل مساعدته على المذاكرة، وبعد وضع أصحابه على المحك والاختبار، فلم يبق منهم أحد، وبعد عزوفه عن الجامعة لم يبق حوله من يوليه ثقته.

في كل يوم يريد فيه الاقتراب من الآخرين ذراعاً يشعر أنهم يبتعدون عنه مسافات أطول، ويعاملونه كضعيف بحاجة للمساعدة، أو متسول بحاجة للمال، ومما زاد جفاءه عن المحيطين، موقف بعض المصلين في المسجد حين ذهب إلى صلاة الجمعة، ففي نهاية الصلاة تفاجأ ببعض من يرمي له بالصدقات، وكأنه جاء المسجد طلباً لها.

لقد سئم عبارات الرحمة والشفقة عليه، وملّ عبارات (مسكين.. الله يشفيك.. لا حول ولا قوة إلا بالله..) وما تخفيه هذه العبارات من مدلولات نفسية واجتماعية، فازدادت حالته النفسية سوءاً، رافضاً إكمال دراسته

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الجامعية رغم كل محاولات المحيطين، ويتهرب من الاحتكاك الاجتماعي بالآخرين رغم حث وتشجيع الأسرة له.

كل يوم، يطلب من أخيه الأصغر أن يساعده في الوصول إلى شرفة المنزل وقت الأصيل، لتأمل هدوء المدينة وشمسها الراحلة نحو المغيب، وهذه المرة كان جسد المدينة متعباً بعد أيام من اجتياح دبابات الاحتلال لأرضها وتحليق طائراته في سمائها.

ــ آه كم أنت غريبة أيتها الدنيا الفانية.. آه كم أنت عزيز أيها الوطن، يعز علينا أن نراك تغتصب أمامنا ونحن نراقبك، بذلنا لأجلك ولم نجد من أبنائك إلا الجفاء.

ولكنك تستحق أكثر من ذلك، فلو أنني أملك قدمي لترجلت إليهم مرة أخرى وقذفتهم بالحجارة حتى الشهادة..

وبدا كأنه دخل في طقس يومي اعتاد عليه، حين فتح محفظته، وأزيز الرصاص ينبعث من كل مكان، فالتفت إلى أخيه الصغير ليساعده بالانتقال من شرفة المنزل إلى الداخل، ولما لم يجده تابع فتح محفظته وسط أزيز الرصاص والرائحة المسيلة للدموع، يحاول أن يرفع صوته المخنوق طالباً المساعدة...

وأخيراً يتذكره أخوه الصغير في تلك اللحظات العصيبة ليدخله من الشرفة، فلا يجد سوى جسداً هامداً اخترقت الطلقة الثالثة قلبه، وصورة ليلى ابنة عمه تتشبث بين أصابعه، تفوح منها رائحة عطره المفضل الذي كان يضعه صبيحة كل يوم قبل ذهابه إلى الجامعة.. فقد رحل هذه المرة إلى حياة أخرى أكثر سعادة ونعيماً إلى قدر كان يتوقعه.. ليكون شهيداً إلى جوار خالقه.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قبل الاعتراف

كأي مولودٍ على وجه الأرض، حطمت صرخاته صمت المكان.. معلنةً انتهاء فترة مضنية من الحمل، تقارب الشهور التسعة، والتي لم يصبر على إكمالها في بطن أمه، وكأنه يريد التخفيف من معاناة حملها له وهناً على وهن، وفي لحظات ترقب عصيبة، تضع فاطمة وليدها البكر الذي سيقترن اسم والديه باسمه فيما بعد، لتأتي الفرصة التي انتظرها الوالدان، وينالها والده في تلك اللحظات التي ملأ بها قلقه الردهة المجاورة لغرفة الولادة. يحاول أن يحافظ على ثباته... تمنعه إشارة "ممنوع التدخين" المثبتة على الجدار أمامه، من تخفيف توتره واشغال نفسه بالطريقة التي اعتاد عليها.

وبعد لحظات أحس بها طويلة، كانت فيها أصوات نعله تروح وتأتي في مساحة لا تتجاوز بضعة أمتار، إذ بالباب المغلق الذي يفصله عن زوجته وولده المنتظر، تفتح إحدى دفتيه، قبل أن تخرج منه ممرضة بلباسها الأبيض، وتبدو عليها معالم إرهاق العمل.

ــ مبروك، ولد...

وفي لحظات تتناقض فيها الانفعالات، يختلط القلق مع السعادة الغامرة، فيحضّر نفسه للانتقال إلى مرحلة جديدة كان ينتظرها منذ ثلاث سنوات، هي امتداد فترة حياته الزوجية، وقد ثبت بصره في وجه الممرضة لا شعورياً،دون حراك، ودون أن يسعفه لسانه بكلمة واحدة، فتستطرد الممرضة:

ــ ما شاء الله، جميلٌ كالبدر، الشقي قد أتعب والدته، حمداً لله على سلامتهما.

ويغادر صوتها المكان، ولا يزال صداه يتردد على مسمع الرجل "مبروك... ولد"، وتخاطبه نفسه:

ــ أنت الآن أبو عبد الله، نعم... الولد الذي سيحمل اسمك واسم والدك من قبل، رحمه الله، كم تمنيت أن يكون موجوداً ويشاركني هذه اللحظات.. الحمد لله.

وبريق عيونه التي لمعت في ذاك المكان، انهارت دموعها وسط قبلات أحد الأقارب الذي حضر لتوه ومباركاته له بابنه البكر.

ــ مبروك، مبروك.. الحمد لله على السلامة.

وجمعٌ من النساء يتوسط سرير الزوجة التي أعيتها آلام المخاض، فهي التجربة الأولى والأصعب، لقد عرفت في هذه اللحظات معنى الأمومة، وسرّ العلاقة والصحبة الوطيدة بين الأم وابنها.

وهكذا ارتشف عبد الله الحنان من المذاق الأول لحليب والدته، ومن عيونها التي سهرت على راحته عرف معنى الأمان، ولوجهها التقطت عيناه الصورة الأولى التي لم تبصر بعد سواها، وعلى أصوات أغانيها وهدهدة كفها يروق له أن يحلم وينام، وفي حضنها يبني عرشه الأول الذي لم يجد مكاناً أكثر دفئاً منه.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ووالده الذي لم يأل جهداً في توفير متطلباته، كان يجد في عبد الله الصغير جزءاً من شخصيته وشخصية والده الذي سمي تيمناً باسمه وإحياء لذكراه، يتخيل مستقبل ابنه رجلاً سيجدد حياة الأسرة، ويحمل الرسالة عن كاهله، بعدما أتعبه حملها طيلة سنوات، كذكر وحيد لوالديه بين أخواته الكبيرات، في مجتمع يعطي أهمية للرجل، وينتظر منه مسؤوليات كبيرة في وقت مبكر من عمره.

ظل عبد الله يكبر مع الأيام، وتكبر مع والديه أحلامهما، نموه الجسدي وصحته الجيدة شكلتا نقطة ارتياح لوالديه، لكن خبرة الأم الصغيرة، ودخولها الحديث إلى عالم الأمومة، لا تمكنها من تفسير بعض المواقف التي يمر بها ولدها، فهي تحاول أن تستجمع بعض التجارب السابقة لقريباتها عن تربية الأطفال ونموهم، وتتذكر بعض نصائح والدتها وكبيرات السن، والتي تفتقد طريقها إلى تفسير بعض الأمور التي تلاحظها على عبد الله، هذا إن كانت بالفعل تستطيع ملاحظة وتتبّع أهم الجوانب النمائية لديه.

وتعود الأم الفرحة بطفلها، لتحمل في ذهنها بعض الاستفسارات التي تطرق باب تفكيرها من وقت لآخر.

ــ لماذا هو شارد الذهن دوماً، يثبت بصره في تلك الزاوية من ركن المنزل؟!

ألا تثير انتباهه تلك الألعاب ذات الأصوات والموسيقى الجميلة التي أحضرها له والده؟

تقترب منه وتداعبه.. تناديه.. وتفرك أصبعيها بجانبه لتثير انتباهه نحوها، إلا أن الاستجابات تأتي دوماً متأخرة، وكم تكون فرحتها كبيرة حين يلتفت إليها بعد أن تشير له بيديها، ويثلج صدرها عندما يبتسم في وجهها، وكأن في هذه الضحكات كلام يرسله لأم عشقته ولكنه لا يزال صغيراً على ترديده.

فاطمة، وبعفوية الأم المتلهفة لسماع ابنها، شرحت لوالدتها ما يدور في ذهنها من تساؤلات، وانتظارها الطويل لكلمة ينبس بها ابنها، تخرج من ثغره الصغير، تروي عطشها، وتشعرها بأمومتها التي نقلتها إلى عالم آخر، وحياة أخرى، كمن تطالب بحق لها عند وليدها الذي لا يزال في السنة الأولى من عمره.

وترد الأم الكبيرة المجربة دوماً بكلماتها الواثقة، ترسلها للأم الصغيرة بطريقة ساخرة، ترافقها ضحكات وإيماءات أنثوية:

ــ أنت لا زلت صغيرة على هذه الأمور.. أنت مستعجلة، سيزعجك غداً بمطالبه وإلحاحه... لا زال الوقت مبكراً عليه، وهذا حال كل الأولاد، إحمدي الله يا بنت، ابنك مثل القمر.. ما شاء الله عليه.

وبهذه الكلمات أو ما يشابهها ترد العجوز، لتلتقط أم عبد الله أنفاسها من جديد وتطفىء جذوة قلقها على طفلها، وتقنع نفسها أن ابنها بخير، ماسحة الأوهام عن مخيلتها بابتسامتها الباهتة، فهي تستقي معلوماتها من امرأة مجربة، عرفت الطفولة بكل مراحلها العمرية والنمائية، فتستسلم للمثل الشعبي الشائع: "اسأل مجرب ولا تسأل حكيم".

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ظل الأمر كذلك حتى صرحت فاطمة بملاحظاتها عن عبد الله أمام جارتها التي وافقتها الرأي، مضيفة أن الاستجابة البطيئة للمثيرات الصوتية هذه، تعدّ أمراً مثيراً للشك في حاسة السمع، وهذا ما لم تلاحظه الجارة عند أبنائها الصغار من قبل، فشكلت هذه الكلمات لفاطمة قلقاً لم تستطع إخفاءه، ودافعاً للتحرك نحو مستقبل ابنها والتأكد من نموه السليم.

عكست هذه الكلمات على فاطمة معالم القلق طوال اليوم، حتى جاء زوجها من عمله، وكعادته وبعد تناول طعام الغداء، حمل ابنه لملاعبته، فكان يضع إصبعه على فمه ووجنتيه ويؤرجحه في حضنه، حتى يستثيره للضحك والابتسام، فتتفتح أزهار الطفولة المحمرة على وجنتي الطفل، يشتم منهما أبو عبد الله عبير الأبوة التي كانت غائبة عنه، فينهال عليه بالقبلات التي يغيّب طعمها أدنى تفكير بمشكلات قد يعانيها الطفل، في غمرة أجواء من المرح وتبادل العاطفة والحب.

إلا أن الأم القلقة، لا تستطيع الدخول في هذا الجو الأسري الدافىء هذه المرة والمشاركة فيه، فقد سمعت اليوم من جارتها ما يعكر صفوها ويثير شكوكها، ما ساعد أبو عبد الله في استقراء معالم وجه زوجته الذي يعج بالقلق.

ــ ما لك يا فاطمة، لا أراك اليوم كعادتك، هل أنت متعبة؟

فيعيد صوت الزوج الحنون فاطمة من خيالها السابح في كلمات الجارة:

ــ ها... لا ... لا شيء.

قالت ذلك وهي تلملم أفكارها المبعثرة، وتجمع الصحون عن المائدة، مغادرة نحو المطبخ.

وأمام إلحاح الزوج وإصراره على معرفة ما يعكر صفو زوجته، تخرج فاطمة ما بجعبتها من توجسات، منتظرة من زوجها موقفاً يساندها ليزيل الشك من قلبها، إلا أن الزوج يسخر من مجرد التشكيك في صحة عبد الله، في الوقت الذي يرمق ببصره نحوه، حيث تتبدى معالم ذكائه تدريجياً في سلوكه اليومي، ويعزز ذلك صحته الجسمية وقسمات وجهه الجميل، مستذكراً طريقته في اللعب، والتي لا تقل عن مستوى أقرانه.

ــ دعك من كلام النساء هذا يا فاطمة، فعبد الله ما شاء الله عنه، لا تجلبي له الفأل السيء.

ــ لن نخسر شيئاً إن أخذناه إلى عيادة الطبيب المختص لفحصه والاطمئنان عليه.

وبعد نقاش دار بين الزوجين، وافق أبو عبد الله على اصطحاب ابنه إلى الطبيب للكشف عنه، نزولاً عند رغبة زوجته، دون أن يغير قناعته تجاه ابنه، والتي اختلقت الجارة الشكوك والأوهام حوله.

توجه الزوجان إلى عيادة الطبيب لفحص ابنهما والاطمئنان عليه أكثر، مع انتظارهما لنتيجة مسبقة من الطبيب، وضعاها في ذهنيهما، تقضي بأن ابنكما طبيعي، وما ملاحظاتكم إلا أوهام ليس لها في الواقع من أساس،والأيام كفيلة بإظهار ذلك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إلا أن الرد لم يأت كما يروق للوالدين ويرغبان، فقد كانت نتيجة الفحوصات السمعية صدمة قوية للوالدين، وشكلت حالة من الإرباك لهما وعدم تصديق ما حدث.

فعندما جلسا بجوار الطبيب ليخبرهما النتيجة، وبكل هدوء راعى الطبيب نقل الخبر تدريجياً، حتى لا يشكل وقعه آثاراً سلبية على الوالدين قدر الإمكان ثم قال:

ــ عبد الله يعاني من فقدان سمعي عميق، يؤثر على مدى استقباله للأصوات والمثيرات من حوله، وبالتالي على مدى اكتسابه للغة مستقبلاً، وسوف يكون للتدخل المبكر بوضعه الصحي أثر إيجابي على حالته، واكتسابه اللغة والقدرة على الكلام، وذلك باستخدامه معينات سمعية، ومواظبة الأسرة على جلسات التدريب النطقي والسمعي.

كادت هذه الكلمات تنزل كالصاعقة على الأم التي شعرت بسخونة أحمرّ منها وجهها، وشعرت بدوار، ولم يكن الكرسي الذي تجلس عليه كافياً لحمل العبء الذي شعرت به، تحضن ابنها بين ذراعيها، وكأنه ليس ذات الطفل، تحاول التأكد مما تسمعه إن كان حقيقة أم حلم.

نظر الزوجان إلى بعضهما على أمل أن يستمد أحدهما القوة من الآخر، ومعالم الحزن المختلطة بالنكران، ومحاولات التفسير والتبرير تكسو وجهيهما المتعبين.

ــ أنا لا أصدق ذلك، إن كان عبد الله يعاني من مشكلة فليس إلى هذا الحد!!

هكذا قال الأب.

ــ هذه نتيجة الفحوصات السمعية، وبإمكانكما الاطلاع عليها، وأنا من واجبي أن أنقل لكما النتيجة بكل دقة وأمانة، وأنصحكما بما يجب أن تقوما به من الآن تجاه طفلكما من أجل مساعدته.

زيارة الزوجين إلى الطبيب نهار اليوم شكلت منعطفاً خطيراً في حياتهما الزوجية، إن كانت نتيجة الفحوصات السمعية التي أشار لها الطبيب دقيقة، فمنذ عودتهما إلى البيت وتفكيرهما مشغول بتقبل أو عدم تقبل ما حدث، فبدأ الزوجان ينظران إلى عبد الله من زوايا مختلفة، ومن أجل الخروج من كابوسهما المزعج، بات كل منهما يرى في عبد الله أشكالاً من السلوك الطبيعي الذي لا يدل على وجود إعاقة لديه، فهو يتحرك بنشاط ويتفاعل مع الآخرين، وتظهر عليه ملامح الذكاء، فلا يزال النطق والكلام عليه مبكراً.

ويتساءلان: كيف يدعي الطبيب أن طفلنا لديه إعاقة سمعية؟! لابد أن يكون هناك خطأ في عملية التشخيص، هكذا كان كل منهما يلجأ إلى إقناع نفسه وطمأنة الطرف الآخر.

هذه الليلة هي الأثقل على الزوجين منذ أن أنجبا طفلهما البكر، وباتا يفكران بمستقبل طفلهما إن كان فعلاً ذا إعاقة سمعية، وتدور الأسئلة في ذهن كل منهما دون أن تجد طريقها إلى الإجابة، فهل يعقل أن هذا الطفل الملاك لن يتكلم؟! لن يستطيع أن يناديني (أمي، أبي) التي حلمت بها طويلاً؟ لماذا حدث ذلك؟ وإن كان فعلاً

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قد حدث، فمن المسؤول عن ذلك؟ هل أخطأ أحدنا في حياته حتى يجازيه الله على الخطأ بطفل معوق؟ كيف سيكون مستقبل إعاقة عبد الله وما تأثيرها على حياتنا الأسرية والاجتماعية؟ وهل إذا رزقنا الله بأطفال آخرين سيكونون صماً أيضاً؟ كيف سنظهر طفلنا أمام المجتمع؟ وكيف سيتواصل أطفالنا مع الآخرين؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت محيرة للزوجين، يدفنانها بعيداً في أعماق الصدور، دون أن يبوح أي منهما بها للآخر، ويحاولان الهروب من هذه الإجابات بنكران ما حدث جملة وتفصيلاً.

وبعد أيام من محاولات التبرير وإقناع الذات تلجأ الأسرة إلى طبيب آخر لتحصل على النتائج نفسها، الأمر الذي يزيد الأمور تعقيداً، ولا يعرف الوالدان في غمرة غضبهما وارتباكهما، أيوجهان اللوم إلى نفسيهما بالتقصير تجاه الطفل في مرحلة الحمل، أم أن هناك خطأ حدث في المستشفى أثناء عملية الولادة؟ أم أن اللوم ينبغي أن يكون تجاه أحد الأجداد الذي نقل لطفلهما إحدى الصفات الوراثية؟

وتصطدم كل هذه الانفعالات بصخرة الواقع الذي أصبح قائماً في بناء الأسرة الصغيرة، فلا يجدان أمامهما إلا الإيمان بالله وقدره، كحلٍ أمثل لتفسير ومواجهة كل ما حدث.

وفي جلساتها الصباحية مع جاراتها كل يوم، وبعد خروج زوجها إلى العمل، تطلع فاطمة جاراتها على تفاصيل تطورات اليوم السابق، حيث أصبح موضوع عبد الله يشغل بال المحيطين بوصفه جديداً ومثيراً للاهتمام.

وفاطمة بوصفها أماً تسعى للحصول على كل ما هو مفيد لابنها، يدفعها لذلك حبها له، وهي مستعدة لعمل المستحيل من أجله، ما دام الطب عاجزاً عن إعطائها العلاج المناسب والفوري لحالته، والذي يمكنه من تطوير مهاراته اللغوية كبقية الأطفال، ففي حين عدم استسلامها لكلام الأطباء، أصغت هذه المرة لحديث الجارات اللواتي اقترحن عليها أقصر وأمثل حل لمشكلة ابنها، والذي يتمثل باللجوء إلى السحرة والمشعوذين ليدلوا بدلوهم تجاه هذه المشكلة التي تؤرق الأسرة، ظانة أنها ستحقق مفاجأة من وراء زوجها، إذا جاءته بعبد الله يوماً، وأحضرت معه اللغة التي سوف يزرعها المشعوذ في فمه أو لسانه، وإذا ما فشلت فإنها لن تخسر شيئاً ــ حسب اعتقادها ــ إلا أن فاطمة قد خسرت المزيد من المال الذي كان ينبغي أن تنفقه على علاج ابنها، ومزيداً من الوقت يمر في غير مصلحته.

وهذه التجربة الفاشلة من العلاج المبني على طرق غير علمية، قد أدخلتها دائرة من الاستسلام والشعور بالكآبة تجاه وضع ابنها، وشعورها بالحزن عليه والعجز عن مساعدته، ما أدى إلى عزوفها عن الاختلاط بمحيط الأسرة الاجتماعي.

فعلى الرغم من المكالمات الهاتفية التي تأتي من جاراتها لدعوتها لزيارتهن كالعادة، إلا أن ذلك لم يعد محط اهتمام فاطمة، فقد قلّ خروجها من البيت، وما عادت رائحة فنجان القهوة الصباحية التي تغليها الجارة تثير

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شهيتها، حتى حفل زواج أحد أقاربها مؤخراً، لم يكن لديها رغبة بحضوره، وكأن خجلها من فتح موضوع عبد الله أمام الآخرين، واطلاعهم على تطورات علاجه غير المجدية حتى الآن هي السبب في ذلك.

وما كان من الزوج الملاحظ دوماً لهموم زوجته، إلا أن لمس هذه الهمة الفاترة عندها، والانخفاض في مستوى دافعيتها تجاه علاج ومتابعة الطفل، وككل مرة تنكر فيها فاطمة، وتحاول أن تداري حزنها أو قلقها عن زوجها، تفشل هذه المحاولات أمام إصرار الزوج المحب، وفضوله لمعرفة ما يدور في ذهن زوجته، ومحاولة إخراجها من دائرة مغلقة قد تؤثر على حميمية العلاقة الزوجية، لأبوين تقاسما فرحة وجود عبد الله بينهما، وبالتالي عليهما تقاسم معاناة إعاقته.

فاعترفت له بلجوئها إلى أحد المشعوذين كمحاولة لعلاج عبد الله من مرضه، وما كان هدفها إلا مساعدة طفلهما وتحقيق السعادة له، نظراً للوقت الطويل الذي تستغرقه البرامج التأهيلية والتربوية للتخفيف من حدة إعاقته أو التكيف معها، الأمر الذي أغضب زوجها منها لحين.

لكن هذه التجربة كانت بمثابة صحوة للزوجين، وشكلت اعترافاً بحقيقة إعاقة عبد الله وإيصال الزوجين إلى مستوى من التفكير الواقعي تجاه مستقبله والتعامل معه دون خجل من المجتمع المحيط.

فبدأت الأسرة تبحث بجدية عن سبل العلاج السليم، تجنباً لإضاعة المزيد من الوقت وألحقت عبد الله بالبرامج التدريبية والتعليمية، وقامت بتركيب المعينات السمعية اللازمة له، والتي تساعده على اكتساب اللغة، والبدء بجلسات العلاج النطقي والتدريب السمعي التي قد نصح بها الطبيب من قبل.

وعندما كانت الأم كعادتها خلف باب غرفة العلاج النطقي، تصغي إلى ما يدور في إحدى الجلسات مع ابنها، ودقن وعي ...فتحت باب الغرفة للمرة الأولى وانطلقت إليه كاليهم، وشرعت باحتضانه وتقبيله.

كانت الكلمة التي انتظرتها منه طويلاً، قد انسابت من بين شفتيه عذبة سلسة، أشعرتها بأمومتها التي كادت تضيع في عالم الصمت، وعوضتها عن رحلة طويلة من العناء والتخبّط بالعلاج.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ادمجوني معكم

أصبحت ريم الآن وهي تدخل ربيعها الثامن، أكثر قدرة عما مضى بالاستقلال عن أمها من حيث إتقانها للمهارات الحياتية اليومية، والإعتناء بنفسها بعد أن كانت معتمدة عليها كلياً، كل ذلك تحقق بعد أن التحقت ريم بمؤسسة لذوي الاحتياجات الخاصة في الحي المجاور للبيت الذي تقطنه في قلب المدينة.. ليس هذا ما تعلمته ريم في هذه المؤسسة فحسب، بل أصبحت الآن قادرة على قراءة وكتابة الحروف الأساسية، وتمييز الأعداد وحفظ بعض الآيات القرآنية عن ظهر قلب، إضافة إلى بعض الأناشيد المدرسية التي دأبت على ترديدها في البيت، بإيقاعاتها ونغماتها التي تعلمتها وزملاؤها في حصص الموسيقى.

كانت غيرتها من أخيها وليد ابن السادسة ورغبتها في إراحة والدتها ومساعدتها، يشكلان لها دافعاً أساسياً للاعتماد على ذاتها في قضاء احتياجاتها الشخصية، فما عادت تلح على والدتها بإحضار كأس ماء وهي على مقربة من المطبخ، أو تطلب ارتداء حذائها أو ملابسها، اللهم فقط عند حاجتها لبعض التدخلات لالتئام بعض أزرار الملابس، أو التغلب على العوائق التي تعد ثانوية مقارنة عن ذي قبل.

حتى ملعقتها المميزة، والتي تغضب إذا حاول أحد استعمالها دونها، تصر على أن تغسلها بالماء والصابون بعد استخدامها كل مرة، ومن ثم إعادتها إلى مكانها بين مجموعة أدوات تقتنيها وتحتفظ بها لنفسها.

لم تكن والدتها التي تعمل معلمة في أحد رياض الأطفال تعلم شيئاً عن ذوي الإعاقة الذهنية، وتحديداً الأطفال المصابين بمتلازمة داون سوى بعض ما كانت تسمعه بالصدفة من هناك وهناك من أفواه المحيطين، فتنتابها مشاعر الحزن عليهم، والشفقة على أهاليهم الذين تفترض تعبهم وعذابهم جراء وجود أحد هؤلاء الأطفال عندهم في الأسرة.

لم تكن تعلم شيئاً عن تدريبهم أو تأهيلهم، وكانت تتصورهم أطفالاً ينتظرون الرعاية الصحية والعناية في مؤسسات أشبه بالمصحات، يقضون فيها جل حياتهم إلى أن يتغمدهم الله برحمة منه، فيريحهم من آلام >المرض< ومعاناته، وقسوة بعض عديمي الشفقة تجاههم.

كانت تبكي بشدة وحرقة، بمجرد أن تتخيل هذا المستقبل المشؤوم لصغيرتها، والذي اختزلته في صور مصغرة، تمثل معاناة طفلتها المنتظرة عندما تكبر وتمر بمراحل حياتية مختلفة من عمرها.

ويزيد بكاؤها شدة كلما التفتت إلى وجه طفلتها المختلف تماماً عن وجوه الأطفال الآخرين، ترمق عينيها اللوزيتين الغائرتين في وجه مستدير، يتوزع فيه أنف وأذنان صغيرتان، ولسان متشقق قد برز من فتحة الفم، إضافة إلى كفّين سميكتين تتفرع عنهما أصابع قصيرة، ورقبة لا تكاد تظهر، تربط بين الجسد والرأس الذي يكسوه شعر أملس مسترسل.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كل هذه المظاهر الجسمية، هي علامات لحالة الأطفال المصابين بمتلازمة داون التي أخبرها بها الطبيب منذ اللحظات الأولى لميلاد ريم في المستشفى، بعد اتمام الفحوصات الطبية اللازمة.

بدأت الأم رحلتها في التعرف على عالم الإعاقة، وبدأت تبحث عن معنى لهذه الكلمة الجديدة عليها، والتي أخبرها بها الطبيب، محاولة العثور فيها على مستقبل لطفلتها، لا توفر فرصة بسؤال المحيطين والمختصين، تنقب في صفحات الكتب التي حصلت عليها من إحدى زميلاتها المعلمات، لتجد إجابات عن بعض الأسئلة التي تدور في ذهنها، حول أسباب هذه الحالة وخصائصها الصحية والاجتماعية والسلوكية، ويروق لها أن تقرأ بين السطور عن برامج تأهيلية وتدريبية يتلقاها الأطفال المصابون بمتلازمة داون في مؤسسات خاصة، لمواكبة تطورهم في مختلف الجوانب الاجتماعية والأكاديمية والسلوكية، فتبدأ في البحث عن هذه المؤسسات لتجد واحدة منها في الحي المجاور لمكان سكنها.

لم تكن هذه المؤسسة جديدة عليها، فقد رأتها كثيراً ومرت بأطفالها يتدفقون منها إلى الحافلات عند انتهاء الدوام، لكن لم يخطر ببالها ولم تكن تسأل نفسها عن طبيعة هذه المؤسسة وما تقدمه من خدمات لهذه الفئة..

ومن جديد بدأت الأم تتساءل:

أهي مدرسة أم مصحة للمرضى؟ وإن كانت مصحة فلماذا يحمل الأطفال حقائبهم؟ أتحتوي هذه الحقائب على كتب وأقلام ودفاتر، كالتي يحملها بقية طلاب المدارس؟ هل يعقل أن هؤلاء الأطفال لديهم القابلية للتعلم؟!

أثيرت في نفسها كل هذه التساؤلات، لأن الأمر أصبح يعنيها منذ أن خرجت ريم إلى الحياة، وبعد مقابلة مع مديرة المدرسة الخاصة، تنفست الأم الصعداء عندما تعرفت على ما يأتي هنا الأطفال من أجله، فهو أكثر من مجرد رعايتهم وتقديم الخدمة لهم، بل هو تمكينهم من الدخول إلى بوابة الحياة عبر هذه المدرسة.

فرحت الأم كثيراً حين أخبرتها المديرة بأن ريم سيكون لها مكان بين الأطفال هنا عندما تكمل السنة الثالثة من عمرها، وما يثلج الصدر أكثر هو أن ريم ستبقى إلى جوار أمها ولن تفارقها خلال فترة تلقي التدريب في هذه المدرسة الخاصة، فهي ستقضي معها وقتها في البيت بمجرد عودتها من المدرسة، بخلاف ما كانت تعتقد من قبل عن مثل هذه المدارس والمؤسسات.

باتت مشاعر الأم ملتهبة نحو طفلتها في أول يوم اتجهت فيه إلى المدرسة، تراقبها وهي تضع دميتها في حقيبتها الصغيرة، والتي وضعت لها فيها أيضاً أقلاماً ملونة وبعض قطع الصلصال إضافة إلى كراس اعتادت ريم التلوين فيه.

ولا تخل فرحة الأم من اختلاطها بمشاعر حزن على ريم التي تبدو مختلفة عن بقية الأطفال، فكان نصيبها أن تذهب في باص خاص إلى مدرسة خاصة، لتتلقى تعليماً خاصاً يتناسب مع قدراتها العقلية البسيطة، لعدم قدرتها على مواكبة الأطفال العاديين في تعليمهم العام.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لاحظت الأم تطوراً يطرأ على طفلتها في مختلف المهارات الاجتماعية، وتنامت قدراتها الاستقلالية، لقد أحست فيها طفلة تملك الدافعية للتعلم، وبدأت حصيلتها اللغوية تنمو مع الأيام، مع تعثر بسيط في بعض الكلمات، الأمر الذي يضفي رونقاً خاصاً على لغتها، إلى أن انتقلت ريم إلى مرحلة تتعلم فيها المهارات الأكاديمية البسيطة من قراءة وكتابة، بعد أن أصبحت عضلات أصابعها الدقيقة أكثر قدرة على التحكم بحركة القلم، فكادت الدمعة تقفز من عيني الأم وهي تراها تخط على دفترها الجميل، كلمة لعبت بمشاعرها كانت كلمة ماما المكتوبة بخط كبير ومتعرج، تخترق بكل حروفها قلب الأم التي أخذت تلقائياً بعناق وتقبيل طفلتها الصغيرة.

دأبت الأم الحريصة على متابعة طفلتها، منحها جزءاً من وقتها اليومي لتدريبها ومساعدتها على حل الواجبات البيتية بكل أناة وصبر، برفقة أخيها وليد، واللذين يشكل كل منهما دافعاً للآخر للتعلم، حين ينتاب أحدهما التقاعس عن أداء الواجب أو الشعور بالملل.

ظلت الأم كذلك، دون أن تسمح لمشاغل البيت أو متطلبات بقية الأولاد، أن تطغى على حصة طفلتها من العناية والاهتمام ناهيك عن التواصل المستمر مع معلمتها ومدرستها، ومناقشة أية ملاحظات قد تطرأ على سلوكها في البيت أو المدرسة.

وفي أحد الأيام التي كانت الأم خلالها في زيارة لمدرسة ريم الخاصة، أثنت المعلمة كالعادة على أداء الطفلة وتميزها عن بقية الأطفال، واقترحت على الأم فكرة إتاحة فرصة التعليم العام لريم بين زميلاتها في المدارس العادية، كحق لها بالدمج معهن، خاصة أن كل من مستواها الدراسي وأداءها السلوكي والاجتماعي يسمح بذلك.

فكانت الفكرة مفاجئة ومربكة للأم، حيث أحست بخوف تجاه مستقبل طفلتها، فعلى الرغم أن مبتغاها وسعادتها في أن تجد ريم بين زميلاتها على مقاعد الدراسة، إلا أنها تخشى عليها الإحباط من مستواهن الدراسي الأفضل، وأكثر ما تخشاه هو النظرات السلبية التي قد تتولد تجاهها من قبل الزميلات، خاصة أن شكلها الخارجي المختلف قد يجعلها مثار استغراب الطالبات، أو قد لا تحظى الطفلة بمستوى من الاهتمام في المدرسة العادية المكتظة بالطالبات، والتي تتبع نظماً مختلفة عما هو متبع في مؤسسات ومدارس ذوي الاحتياجات الخاصة.

ظلت الفكرة تلازم الأم، تقلبها يميناً ويساراً، فهل من السهل على ابنتي أن تندمج مع زميلات المدرسة؟ وإن لم أوافق على دمجها، فإن ذلك قد يضيّع من أمامها فرصة ذهبية للاحتكاك مع الأطفال العاديين والاكتساب منهم، خاصة وأن مستواها كما ذكرت مديرة المدرسة والمعلمة يؤهلها لذلك...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأخيراً، أوصلها تفكيرها إلى قبول فكرة الدمج بعد نصائح المحيطين، على اعتبار أنه حل أمثل وفرصة سانحة لريم.

حرصت الأم على أن ترافق ابنتها في اليوم الأول من المدرسة الجديدة، عمرها الآن ثماني سنوات، وقد التحقت مع طالبات الصف الأول الأساسي، شكلها الخارجي يظهر بأنها مختلفة عن الطالبات الأخريات، مما جعل جو الصف في اليوم الأول لا يخلو من النظرات المستغربة وبعض الوشوشات.

باتت ريم هادئة وساكنة في مقعدها، وقد وضعتها المعلمة في المقدمة لقصر قامتها بالمقارنة مع زميلاتها، وقد ظهرت الطفلة النشيطة بمدرستها الأولى خاملة في مدرستها الجديدة، لا تكف أسنانها عن قضم أظافرها، وكأنها تخفي خجلاً أو قلقاً جديداً يسكنها، غير محاولة إظهار أدنى مستوى من التواصل مع زميلاتها ومعلمتها، رغم تحفيزات المعلمة المستمرة وتشجيع الأم.

لم تشعر هذه الملاحظات الأولية الأم بالراحة، فقد اعتادت أن ترى طفلتها مشاركة مبادرة، في كل ألوان النشاط الصفي، متفاعلة مع معلمتها وزميلاتها، ولم تخف الأم خوفها على المديرة المتفهمة والتي أخذت تطمئن الأم القلقة، وتبدد خشيتها من عدم نجاح التجربة، مبررة بأن الطفلة لا زالت جديدة على جو الصف، ولا زال الوقت مبكراً للحكم عليها، والمسألة تحلها الأيام، وستكون الأمور على ما يرام إن شاء الله.

شكلت عبارات المديرة دافعاً للأم للإستمرار بالتجربة، فهي تنظر إلى الأمور بعيون متفائلة رغم أن ريم هي تجربة الدمج الأولى بالنسبة للمدرسة، فوجود طفلة في حالة ريم يبدو أمراً غريباً على بيئة المدرسة بطالباتها وهيئتها التعليمية.

ولا يقل الأمر غرابة بالنسبة لريم، فكل شيء حولها يعتبر بالنسبة لها جديداً أو غير مألوف، فالمدرسة كبيرة بساحاتها ومبانيها، والصف مكتظ بالطالبات، ولم تشاهد فيه الألعاب والوسائل الملونة التي اعتادت على رؤيتها، الكراسي كبيرة... والسبورة مرتفعة... حتى المعلمة تبدو مختلفة، فلم تجد فيها العطف والحنان اللذين اعتادت عليهما، وهناك فجوة واضحة بين المعلمة كمقدمة للمادة وبين الطالبات كمتلقيات.

أما الأنشطة، فقد كانت قليلة وغير مشبعة لريم، فقد تعودت على التعلم عن طريق استخدام البصر لا السمع فقط، والتلوين لا الكتابة فقط، واللعب، إضافة إلى الفك والتركيب وغيرها من الأساليب التعليمية.

لم يكن مطلوباً من ريم في صفها الجديد سوى أن تكون مستمعة على كرسيها الذي يجب أن لا يتزحزح، ونظرها ثابت لا يفارق السبورة أو وجه المعلمة، وكان عليها أن تحبس صوتها حتى لو أرادت الحديث إلى من بجوارها، وإن استطاعت أن تشبك أصابعها وتمد يديها طوال الحصة، فإن ذلك يدل على أدب زائد في نظر المعلمة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كانت التعليمات مختلفة وصارمة بالنسبة لريم، لدرجة أشعرتها بالملل والقلق، فالحصة طويلة وخالية من المعززات، ولم تشعر بقرب الطالبات منها، بل كانت تقضي الفسحة وحيدة دون أن تجرؤ على الاقتراب من المراجيح والألعاب الموجودة في الساحة، خوفاً من أن يعتدي عليها أحد أو يمنعها من اللعب.

كل هذه الملاحظات اكتشفتها والدتها بعد أن رفضت ريم الذهاب إلى المدرسة، معبرة عن ذلك ببكاء شديد يظهر رغبة ملحة بالرجوع إلى مدرستها الأولى، وبعد حوار مع الطفلة، توصلت من خلاله الأم إلى بعض الأسباب التي خلقت هذه الفجوة بين ريم ورغبتها المعهودة في التعلم، وحبها السابق للمدرسة التي كانت تتحدث عنها لأخيها وليد باستمرار:

ــ ذهبنا اليوم إلى حديقة الحيوانات.

وفي يوم آخر تقول له:

ــ لعبت بالرمل واتسخت ملابسي.

ــ ... رقصنا اليوم في حصة الموسيقى..

ــ ... أحضرت لنا المعلمة ألعاباً جديدة..

ــ ... وضعت لي المعلمة اليوم نجمة أخرى بعد إجابتي على السؤال.

ومن بين الأمور التي فهمتها الأم عن ابنتها، أن والد نسرين جارتها في المقعد، جاء يوماً إلى المدرسة وأخبر المعلمة أمام تلميذات الصف، بأنه لا يريد أن تجلس نسرين بجانب التلميذة >المريضة< خوفاً من أن ينتقل إليها المرض! وأمام إصراره، استجابت المعلمة لطلبه ونقلت نسرين بعيداً عن ريم، وجلبت مكانها طالبة أخرى جلست مجبرة على مقعدها الجديد، تحاول زحزحة كرسيها بعيداً عن ريم، وتنظر إليها باشمئزاز ممزوج بالخوف، حريصة على ألا تلمسها أو تلتقي أنفاسهما معاً، حتى لا ينتقل إليها المرض.

وقد اتضحت الصورة للأم بشكل جلي أكثر، بعد أن قضت يوماً آخر مع ابنتها في المدرسة، وشاهدت كل ما يحدث على أرض ا لواقع.

تركت هذه التجربة أثرها في نفس ريم، وفي سلوك والدتها التي صدمها تعامل الطالبات الأخريات، ونظرتهن إلى ابنتها، وهزها منظر الطالبات في الساحة وهن ملتفات حول ريم، دون أن يقتربن منها وكأنهن ينظرن إلى جسم غريب في المدرسة.

هذا المشهد كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وقررت الأم بناء عليه إعادة ريم إلى مدرستها الأولى.

ــ لا تقتربي منها إنها مجنونة وقد تؤذيك.. قالت إحدى ا لتلميذات.

وترد عليها زميلتها:

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ــ بل إنها مريضة، وقد تنقل لنا المرض.

وتقول ثالثة:

ــ حرام عليكم، إنها مسكينة، اتركوها وشأنها.

وما كادت الأم ترى هذا المشهد وتسمع هذه الكلمات حتى التقطت يد طفلتها من بينهن، وغادرت المدرسة مسرعة، وهي تتمتم كلمات على مجتمع يزرع في أطفاله معتقدات مشوهة عن ذوي الاحتياجات الخاصة، مدركة أن المشكلة لا تكمن في هؤلاء التلميذات الصغيرات، فلولا كلمات تشربنها من العقلاء الكبار لما قلن ذلك بحق ابنتها.

وعندما عادت الأم الحائرة بابنتها إلى مدرستها الأولى، ترتسم عليها علامات اليأس والإرهاق، وبعد أن شرحت القصة كاملة لمديرة المدرسة الخاصة، أحست المديرة بخطأ كبير ارتكبته إدارة مدرستها خلال عملية دمج ريم، وهو التسرع في العملية التي لم يخطط لها، فلم تفكر المدرسة الخاصة بتهيئة الطالبات اللواتي سوف يكن زميلات جديدات لريم، وكذلك الأمر بالنسبة للمعلمات اللواتي لم يسبق لهن التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، وطرق ووسائل تعليمهم، وسماتهم الشخصية.

ــ نعم... (هكذا قالت المديرة بأسف)، كان علينا أن ننتقي المدرسة المناسبة، ونتأكد من توفر الوسائل التعليمية الكافية فيها... كان علينا أن نستطلع آراء أولياء الأمور بعملية الدمج ونشركهم فيها.

وتعبر الأم عن يأسها ومعارضتها للعملية بمجملها:

ــ لا أريد لابنتي أن تكون في ذلك المجتمع الذي لا يراعي إعاقتها، فهنا أفضل مكان لها.

ــ لا أوافقك الرأي، فريم من حقها أن تكون في كل مكان، وأن لا يقتصر وجودها على مدرستنا، يجب أن يكون لها مكان بين زميلاتها، المشكلة ليست بالدمج في حد ذاته، ولكن المشكلة بالطريقة التي اتبعناها، ونحن نعترف بذلك.

وتضيف المديرة:

ــ ولكن لا بأس، لقد تعلمنا من هذه التجربة أموراً كثيرة ينبغي عملها قبل الإقدام على عمل كهذا، يجب أن لا يشكل لنا ما حدث منظوراً سلبياً نحو عملية الدمج، فمجتمع المدرسة معذور لأنه قد تعامل مع شيء لا يعرف عنه إلا القليل، وكان من واجبنا نحن أن نوصله له ونقنعه به، وهذا يستغرق وقتاً، ولكننا تعجلنا قطف الثمار.

وخلال هذا الحوار الدائر في مكتب الإدارة المطل على ساحة المدرسة، علا صوت قادم من الساحة الرملية المقابلة للمكتب مقتحماً عليهما الحوار.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

نعم.. هو صوت ريم الرقيق الناعم الذي افتقدته الأم من فترة، وعندما نظرتا إلى الخارج لوحت لهما ريم بكفها السميكة ذات الأصابع القصيرة، وهي تعتلي أرجوحتها التي طالما اشتاقت إليها، وضحكة عريضة ملأت وجهها المستدير، يلتف حولها مجموعة من الأطفال ومعلمتهم، يهزون أرجوحتها، لتطير مع فراشات الحديقة، فرحين بعودتها، وعيناها اللوزيتان قد عاد لهما بريقهما المفقود، فلوحتا لها بكفين وابتسامتين عريضتين.

وتنهدت الأم بعمق المتعبة وقالت: كان بودي أن أرى هذا المشهد في المدرسة التي حاولنا دمجها بها.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من مذكرات متدربة

في الجامعة، وكتدريب عملي لأحد مساقات التربية الخاصة، طلبت الدكتورة وكعادتها في كل فصل دراسي، أن تتوجه طالبات المساق إلى إحدى مؤسسات التربية الخاصة في المنطقة، لتلقي التدريب الميداني، والتعرف بشكل أكثر تفصيلاً على الخدمات التي تقدم لذوي الاحتياجات الخاصة في المؤسسة، ومن ثم التقدم ببحث عن هذه التجربة العملية بعد انقضاء فترة التدريب.

حيث تقدمت الدكتورة بقائمة تتضمن أسماء مجموعة من المؤسسات العاملة في هذا المجال، وما على الطالبات سوى الاختيار، ليتم رفع الأسماء إلى إدارة المؤسسة المعنية ومن ثم المباشرة بالتدريب.

لم أكن أحمل أية خلفية مسبقة عن هذه المؤسسات، ولم أكن قد حظيت بزيارة إحداها من قبل، فلم يكن مستوى تفاعلي مع ذوي الاحتياجات الخاصة إلى ذاك الحد الذي يدفعني لزيارة مؤسساتهم أو التعرف عليهم عن كثب.. كان كل ما أملكه من معلومات هو حصيلة تعاملي السطحي مع قريب لي، والذي تغمده الله برحمته وهو طفل صغير، فقد كان يعاني من شلل حسب ما سمعت عنه، لكن عقله سليم على حد وصف أمه له، وقد يكون ذلك من بين الأسباب التي دفعتني للاقبال على هذا التخصص، إضافة إلى تنامي اهتمام مختلف المجتمعات والدول في العالم بهذا المجال في عصرنا الراهن، وكون مجال التربية الخاصة أيضاً يعد تخصصاً جديداً في جامعتنا، ولقلة الخريجين فيه ببلدنا.

كتبت اسمي في قائمة إحدى المؤسسات العاملة بتأهيل ذوي الإعاقة الذهنية، كفضول مني وحب للتعرف على جزئيات هذه الإعاقة عن قرب، وصقل المعلومات النظرية التي تلقيتها كطالبة حديثة العهد بهذا التخصص، بصبغة عملية إثر التفاعل مع هذه الفئة، والإجابة عن بعض الأسئلة التي تدور في الذهن، والتحقق من بعض المعلومات السابقة التي اكتسبتها من عامة الناس، مع أن إحدى زميلاتي لم تنصحني بهذا الاختيار، نظراً لصعوبة التعامل مع ذوي الإعاقات الذهنية ــ حسب ما تعتقد زميلتي ــ إضافة إلى السمات التي نعتها البعض على هذه الفئة من المعوقين، والتي جعلتني أشك بالفعل في صحة اختياري لهذه المؤسسة، خاصة أن قلة من الطالبات قد اخترن التدريب فيها.

توجهت إلى المؤسسة في اليوم الأول المقرر من التدريب، حيث حضرت بشكل مبكر، ووقع بصري على مجموعة من الأطفال يلعبون في الساحة، وإلى جانبهم مشهد مثير كان أول ما لفت نظري في هذه المؤسسة، وهو نزول الأطفال من حافلاتهم بانتظام وتوجههم نحو الحديقة استعداداً للطابور الصباحي.. كنت أتخيل هؤلاء الأطفال تقودهم أيادي الكبار، ولم يخطر ببالي نزولهم المنتظم هذا، واستقلاليتهم ومعرفتهم لوجهتهم التي سيذهبون إليها، والتي هي جزء من برنامجهم اليومي.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

دخلت غرفة الإدارة بعد أن قادتني إحدى الموظفات إليها، فرحبت بي سيدة في أواخر العقد الرابع من عمره. نظرت إليّ من خلف نظارتها، تستقبلني ابتسامتها التي زادت وجهها نضارة وجمالاً، وامتدت يدها نحوي عندما وقفت لتسلم عليّ، فصافحتها وبادلتها الابتسامة، قبل أن تشير إليّ بيدها الأخرى للجلوس.

شعرت بأنها استطاعت تحديد سبب زيارتي، والجهة التي جئت منها، وعندما بدأت أعرّفها بنفسي وأشرح لها الغرض من الزيارة، كانت تومىء برأسها، وكأنها تعرف ما سأقول، وبعد أن قرأت كتاب الجامعة الذي بحوزتي، رحبت بي من جديد، وتمنت لي قضاء فترة جميلة بينهم، أستفيد منها وأقدم ما بوسعي لهؤلاء الأطفال. وأعطتني بعض التعليمات التي تتعلق بمواعيد دوام الطلاب ومغادرتهم واستراحتهم، وفكرة بسيطة عن المؤسسة وبعض أنشطتها، وبرنامجها اليومي، وعبرت لي عن سعادتها بوجودي بينهم كمتدربة، مشيرة إلى أن المؤسسة تفتح بابها دوماً للمتدربات والمتطوعات منذ تأسيسها قبل عشرين عاماً، وأنها هي ذاتها كانت متطوعة هنا قبل أن تصبح معلمة ومن ثم مديرة.

وبعد حديث أشعرني بالراحة مع سيدة هي أقرب إلى عمر والدتي، سمعت عبر مكبر الصوت آيات من القرآن الكريم تتلى بصوت طفولي هادىء، تبعها دعاء جماعي، فتوجهت بصحبة المديرة إلى الحديقة الخضراء لحضور طابور الصباح، فرأيت أكفاً صغيرة مرفوعة إلى بارئها، تسأله بخير ما في هذا اليوم، وتعوذ به من شر ما فيه، وكأنها فراشات جميلة ملونة، أيقظتها أشعة الشمس لتوّها من نومها، لتمتص رحيق الأزهار وتسبّح خالقها وتحمده على نعمه.

ثم اصطف الصغار على وقع أنغام تحية العلم، يرددون النشيد الوطني، أغنية حفظتها قلوبهم قبل أن تنطق بها ألسنتهم، فقلت في نفسي:

ونعم الانتماء النابع من أفئدة صغيرة، استوعبت براءتها خارطة الوطن، في حين لم تجد هذه الخارطة مكاناً لها في عيون الكثيرين.

وبعد أن دخل كل إلى صفه برفقة معلمته، وخيمت السكينة على المكان من جديد، أخذتني المديرة بهدوء إلى أحد الصفوف ــ ولا زالت الابتسامة لا تفارق محياها ــ وبعد أن طرقت الباب وفتحته، دخلت بادئة بالسلام، فدلفت خلفها إلى غرفة الصف، وهذه المرة الأولى التي أدخل فيها صفاً لذوي الاحتياجات الخاصة، لم يكن الصف كما تخيلته قبل دخوله، صفاً مكتظاً بالتلاميذ، ومعلمة تقف إلي جانب اللوح، وأطفال كثيرو العدد يصغون إليها كحال الصفوف التي تعلمنا فيها... بل كان الصف أقرب إلى بيت تسكنه أسرة مكونة من مجموعة من الأطفال، إلى جوار مربيتهم أو أمهم، يجلسون وتجلس أمهم بجوارهم تحكي لهم حكاية يتعلمون منها الكثير، وتحضر لهم ألعاباً يحبونها، ويلعبون بها لتنمي مهارات حركية وعقلية عندهم، يرسمون الحياة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من حولهم كما تتخيلها عقولهم، يلعبون معاً... ويأكلون معاً... ويتعاونون في أعمال كلفوا بها، يطيعون أمهم المعلمة... وينسجون علاقات الأخوة والصداقة بينهم وبين الأسرة المجاورة.

أعود لهذا الصف الذي دخلته للمرة الأولى، فيرد أطفاله تحية الصباح بصوت مرتفع على مديرتهم، ويركض إليها أحدهم لتضمه إليها وتقبله، ويشير إليها آخرون، فتبادلهم المشاعر وتربت على رؤوسهم وتمتدحهم بأسمائهم، ولم تسقط البسمة عن ذلك الوجه الذي صرت أحتاج بشاشته كل صباح أذهب فيه إلى تلك المدرسة الخاصة.

عرفتني على المعلمة وتلاميذها وعرفتهم على نفسي، ومنذ ذلك الحين انطبع اسمي في ذاكرتهم، وظلوا ينادونني به طوال فترة مكوثي بينهم، وقد طلبت مني المديرة أن أكون مساعدة لمعلمة هذا الصف.

جلست معهم على كرسي صغير، كطفلة سادسة تتلقى معهم أحياناً وتعطيهم أحياناً أخرى، في البداية كنت قلقة من المبادرة بالتقرب إليهم أكثر، لكنهم كانوا أكثر جرأة مني، حيث بادر أحدهم إلى الحديث إليّ ببشاشة، ويبدو من حديثه الذي لا أفهمه بأنه يرحب بوجودي بينهم، ومدّت طفلة يدها لي لتسلّم عليّ، وإلى جانبي طفل مؤدب، أدركت بأنه قد أخجله وجودي، يضع رأسه بين يديه على الطاولة، ولم يتجاوب معي في تلك اللحظات، رغم محاولات المعلمة المتكررة، فبدأت ألاطفه وأحتك به أكثر حتى اعتاد علي.

وطفلة أخرى تريد لفت انتباهي بين حين وآخر، تطلعني على أدواتها ودميتها الجميلة، وكل ما أحضرته معها في حقيبتها.

ويوماً بعد يوم بدأت أدخل عالمهم الصغير وأندمج فيه، فكانوا يجذبونني إليه، حتى صرت أعيش انفعالاتهم، فرحهم وحزنهم.. أتأملهم حين يلعبون، وأشاركهم اللعب، وإذا غضب أحدهم أعرف ما يغضبه حتى أصل إلى مفتاح فرحه، فغضبهم لا يتعدى نزوة تذوب مع أول ابتسامة ممن يحبهم، وفرحهم أكثر بكثير.

بدأت أدرك أن لكل واحد منهم سماته الشخصية التي يتميز بها عن الآخرين، حتى لو كان يبدو أنه عدواني، فإنني على قناعة أن هناك دوافع وحاجات إنسانية وراء انفعالاته، فإذا أشبعت هذه الحاجات ووجدت البيئة المناسبة المتفهمة، فلا مبرر لعنف أو عدوان بينهم، وصرت أكتشف الطريق إلى قلب كل واحد منهم، لدرجة أن معلمة الصف أصبحت تمازحني بأنني منافسة لها في حبهم، وأسحب البساط من تحت قدميها، فأرد عليها بأن الفضل يعود لمساندتك لي في كسب ودهم وحبهم.

كنت أسمع من عامة الناس مسميات ينعتونهم بها، خوّفتني من المجيء إلى هنا، مثل: (عدوانيون، مزاجيون، غير مدركين، لا يراعون الآخرين، عشوائيون...)، والآن أستطيع القول إن هذه السمات هي سطحية ولا تعبّر عن واقعهم الفعلي، ومن وسمهم بهذه الصفات من المؤكد أنه لم يتفاعل معهم، وقد حكم عليهم مسبقاً قبل أن يعرفهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فشطبت العديد من هذه الصفات من قاموسي الشخصي، وأضفت إليه صفات أخرى بديلة قد وجدتها فيهم مثل: (ودودن، محبوبون، منتظمون، تلقائيون، اجتماعيون، متسامحون...) وصفات أخرى كثيرة تعبر عن النقاء الإنساني والفطرة الأولى التي خلقنا الله عليها.

ويوماً بعد يوم بدأت أشعر بشيء يجذبني نحوهم، وكأن رابطة وجدانية بدأت تنسج خيوطها بيننا، كانت هناك الكثير من الأمور التي تشدني إليهم على الرغم من إعاقتهم ومستوى قدراتهم العقلية، ولا يستطيع رؤية هذه الأمور فيهم سوى من عايشهم، ومن أهمها البراءة، والبساطة والعفوية والبشاشة والمرح وحب الحياة.

عندما اقتربت نهاية الفصل ا لدراسي وانتهت فترة تدريبي، قدمت بحثي الجامعي أمام زميلاتي في الجامعة، ونقلت لهن ما لم يكن موجوداً في الكتب، فأعجب الجميع بما قدمت، وقد أثرت فضول زميلاتي نحو هذه الإعاقة، وشعرت أنني وصلت إلى مفاهيم عميقة، لم يكن بوسع أحد الوصول إليها إلا بعد تجربة عملية، وحياة مع هذا العالم الخاص، ورؤية طيف ألوان الحياة التي لم أكن أراها من قبل.

وفي يومهم الأخير الذي تسلم فيه الأطفال شهاداتهم، حرصت على حضور حفلهم ومشاركتهم فرحتهم وغناءهم وبهجتهم، فقد كان حفلاً تفوح منه رائح الحب والبراءة، رقصوا فيه على أنغام موسيقى الطفولة، وأنشدوا أغانٍ يرون من خلالها مستقبلاً أفضل، وعالماً أكثر رحابة لهم ولزملائهم.

وودعهم المكان الذي وُجد لهم، باشتياق العودة إليه من جديد، وقد تركوا آثار ضحكاتهم وأغنياتهم تتردد في كل أرجائه.

ولكنني لم أودعهم كون مهمتي قد انتهت، بل جئت لأجدد تجربتي وأواصل كتابة مذكراتي معهم بعد انتهاء إجازتهم مع بداية الفصل الدراسي الثاني، ولكن هذه المرة كمتطوعة حسب ما تسمح به أوقات دوامي في الجامعة.

فليس من السهل على بشر، بعد أن يكتشف عالماً جميلاً إلى هذا الحد، ويجتاحه من كل الجهات وبلمح بصر ينسحب منه، دون أن يستوطن قلبه على بقعة من ترابه أو زاوية من زواياه.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولا يزال الحلم مستمراً

واصل تحصيله العلمي وتخرج من الجامعة بعد طول عناء، حصل على المؤهل العلمي الذي كان يحلم به، وبدأت رحلته الأصعب بالبحث عن فرصة عمل، تقدم بسيرته الذاتية التي لم يكتب فيها أنه معاق إلى مؤسسات عدة، إيماناً منه بقدراته التي لا تقل عن زملائه الذين تخرجوا معه، وبأن الإعاقة لا تشكل حاجزاً أمام القيام بواجبات العمل الذي يتقدم له، وكان الرد ــ للأسف ــ بالنفي من كل المؤسسات التي تقدم لها إلا أنه لم ييأس.

كانت المقابلة هذه المرة مع إحدى الشركات الكبرى، لم يكن يساوره شك ــ ولا يزال ــ في أنه سيحصل على مراده ولو بعد حين، ولم تكن الاستكانة ترافقه في جولاته ومقابلاته، بل كان يتكىء على الإرادة التي تحمله دوماً نحو الهدف المنشود.

دخل الشركة حسب الموعد، تنقل بين ممراتها بصمت، كلما اقترب ازدادت ضربات قلبه، كان قد لبس أحسن ما لديه من ثياب، حريصاً على أن يظهر بمظهر لائق أمام من يقابلهم، وبعد أسئلة وإجابات تبادلها مع المراجعين والموظفين عثر على المكان المنشود.

سجل حضوره لدى السكرتيرة التي بادلته الحديث باللغة الانجليزية، ووجد لكرسيه مكاناً بين الجلوس، كلهم مجتمعون لهدف واحد وهو الحصول على وظيفة وينتظرون دورهم للدخول واحداً تلو الآخر، لا يختلف عنهم في شيء سوى أنه حضر على كرسيه المتحرك.

كانت مظاهر القلق والتوتر تكسو وجوه جميع المنتظرين، وتعلو وشوشاتهم بين الحين والآخر وتحتد مناقشاتهم كلما خرج شاب أو فتاة من غرفة المقابلة، فينهمرون عليه بالأسئلة كالمطر: ماذا سألوك.. بم أجبت؟ فلا يجيب إلا على القليل من هذه الأسئلة، فقد أعيته الأسئلة التي في الداخل.

لم تكن الأسئلة بحد ذاتها لتشكل مصدر خوف عند صاحبنا، بل ولم يجد صعوبة في الإسهاب بالإجابة عنها.. سأله أحد الحاضرين عن مؤهلاته فأجاب.. ولم يخل الأمر من النظرات المتفحصة التي ترمقه باستغراب، وكأنها تستهجن عليه منافسته لهم.. فهل لـــ >عاجزٍ< مكان بين جمع الأصحاء هذا من حملة الشهادات!!

مسح وجوههم بنظرة لامبالية وأشاح برأسه عنهم، محاولاً أن يشغل نفسه بصحيفة أمامه، دون أن يسمح لليأس بالتسلل إلى قلبه الذي طالما فاض بالأمل..

وأخيراً، جاء الفرج، عندما نطقت السكرتيرة اسمه بلكنة انجليزية.. استعد للمعركة! وأخذ نفساً عميقاً محاولاً تخفيف توتره الذي بدأ يتزايد، أدار عجلات كرسيه مستعداً للانطلاق.. ساعده أحدهم بدافع الشفقة مع أنه اعتاد السير وحده لمسافات طويلة مذ كان طفلاً يذهب إلى المدرسة الابتدائية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

دخل الغرفة قبل أن تغلق السكرتيرة الباب، استقرأ الدهشة على وجوه لجنة المقابلة، فهؤلاء لم يعتادوا على وجود هذا المشهد في الشركة من قبل، بل اعتادوا عليه في المستشفيات أو مؤسسات الرعاية الخيرية، كانوا يتفحصون أوراقه التي تتناقض ــ حسب اعتقادهم ــ مع هذه الكتلة الماثلة أمامهم.. سألوه ــ وكأنهم لا يريدون الإثقال عليه، أو كأنه مسافر أعيته رحلته الطويلة من أحد الكواكب المجاورة.. أدرك أن الحكم عليه قد صدر منذ اللحظة الأولى لدخوله عليهم، ومع ذلك حافظ على هدوئه وكانت إجاباته بمنتهى الدقة والاتزان.. وانتهت المقابلة.

عاد إلى الشركة ولكن هذه المرة دون موعد مسبق، يبحث عن مكان لاسمه بين سطور الأوراق المعلقة، لم يتفاجأ لعدم قدرة الجدران على حمل اسمه ضمن أسماء المقبولين في الوظائف.. لثقل كرسيه الذي يلازمه.

أدار كرسيه المتحرك وخرج والألم يعتصر قلبه، ليحلم من جديد بالحصول على فرصة عمل غيرها.. أحس بيد تربت على كتفه برفق وكأن أحداً يواسيه بما أصابه.. حينها استفاق على صوت ناعم عذب يهمس في أذنه، كان ذاك صوت أمه يتردد على مسامعه: <محمد.. محمد.. انهض لقد تأخرت على المدرسة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com